



# The geographical environment of Damascus

Prof. Dr. Adel Abdulsalam (Lash)



# الوسط الجغرافي لمدينة دمشق

أ.د. عادل عبد السلام<sup>(1)</sup>

(1) أستاذ سابق في جامعتي دمشق وتشرين، وجامعات عربية ويابانية وألمانية.

## ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن الوسط الجغرافي لمدينة دمشق: الموقع والحدود والمساحة، والعناصر والخصائص الطبيعية لحوض دمشق، من ناحية الطبوغرافية، ونشأة الحوض، والتطور الجيومورفولوجي، والتربة والمناخ والمياه، وكيف كانت مجالاً لأضخم تجمع سكاني، وتحدثت عن مناطق هذا الحوض، والنشاطات الاقتصادية فيه؛ في الزراعة والصناعة والتجارة.

## Research Summary

This paper deals with the geographical environment of the city of Damascus; its location, borders, and the natural elements and characteristics of the Damascus Basin in terms of topography, origin, geomorphological development, soil, climate and water. This also discusses the areas of this basin, and the economic activities performed within it (agriculture, industry and trade).

### \_ تمهيد:

إذا كانت مصر هبةً نهر النيل فدمشق هبة نهر بردى ورافده الفيحة، إذ يكشف موقع دمشق وحوضها الجغرافي بالنسبة للنطاقات المناخية، وتوزع التضاريس المحيطة بها، أنها كانت وما زالت تقع تحت رحمة الظروف شبه الصحراوية، ومتوسطات أمطار سنوية متدنية لأقل من ٢٥٠ ملم، وهو الحد الحرج لممارسة أي شكل من أشكال الزراعة البعلية. فإذا أخذنا الأوضاع التضريسية ووسطها الجغرافي الطبيعي بعين الاعتبار أدركنا أن مدينة دمشق دون نهر بردى ونبع الفيحة وبعض العيون الصغيرة هي واحة قارية لا تصلح للعيش فيها.

### أولاً - الموقع والحدود والمساحة:

تقع مدينة دمشق عند تقاطع خط الطول (٢٣ درجة و٢٢ دقيقة) شرق غرينتش، مع خط العرض (٣٦ درجة و١٨ دقيقة) شمال خط الاستواء، أي في النطاق الجغرافي المناخي فوق المداري، وفي إقليم (الجنوب الغربي) السوري، الذي تحده فلسطين من الغرب، والمملكة الأردنية من الجنوب، وإقليم (البادية أو الصحراء السورية) من الشرق<sup>(٢)</sup>، وإقليم (الجبال العالية) السورية من الشمال. ويعد هذا الإقليم وحدةً جغرافية تضم وحدات جغرافية إقليمية أصغر هي: ١- منطقة حوض دمشق، ٢- منطقة جبل العرب، ٣- منطقة حوران، ٤- منطقة الجولان<sup>(٣)</sup>.

والغالب على هذا الإقليم هو الأراضي البركانية باستثناء منطقة دمشق، التي تتألف أرضها من توضعات رسوبية تُشكل بسيطاً سهلياً محاطاً بالأراضي البركانية، وبالجبال من جانبه الشمالي والشمالي الغربي. أمّا جيولوجياً، فيقع الإقليم على الحافة الشرقية للصدع السوري- الإفريقي (الريفت Rift)<sup>(٤)</sup> وتفرعاته.

(2) تتحو المصادر الأجنبية لاعتبار البادية السورية في الجمهورية العربية السورية أرضاً صحراوية، وامتداداً لـ (الصحراء السورية) في سورية الطبيعية. لكن الواقع أن ما يُعتبر صحراء لايشمل سوى مساحة صغيرة من جنوب شرقي الجمهورية، أي منطقة البوكمال، وماعداها فهي شبه صحراء، تُعرف بالبادية السورية.

(3) جغرافية سورية الإقليمية: عادل عبد السلام، ص 13-14.

(4) الريفت Rift تعني بالإنكليزية الصدع أو الشق، أصبح مصطلحاً يطلق على الصدع السوري- الإفريقي الممتد مسافة 6000 كم من سهل العمق



## ثانياً \_ أرض دمشق ملتقى عناصر طبيعية - بشرية:

لا يُمكن الحكم على مدينة دمشق وأهميتها، دون معرفة أساسيات الجغرافية الطبيعية غير المقيّدة بالحدود السياسية، كالتضاريس والجيولوجية والبناء والمناخ والمياه، وغيرها من عوامل فاعلة في استقرار الإنسان وتجمّعاته السكانية. ففي حوض دمشق الذي ينطبق على وحدة (منطقة دمشق) الإقليمية، تتلاقى منظومات جيولوجية - بناءية، وتضاريسية، ومناخية- مائية وبيئية تكشف دور هذا الوسط، وتحوّله من بيئة شبه صحراوية قارية قاحلة، إلى ملتقى استقبال مجموعات بشرية استوطنته منذ آلاف السنين.

فبالنسبة لتضاريس الحوض وبيئته وتربته فإنه جزء من سورية الطبيعية، يقع على الهامش الغربي للقارة الآسيوية، حيث تتلاقى وحدات جيولوجية- بناءية هي (نهوض الرطبة، ووهدة جبل العرب، ونهوض الأردن)، وحزمة الصدوع التدمرية. فهو في موقع بنائي (تكتوني) جامع لعدد من الظواهر المهمة في تاريخ الكرة الأرضية. كذلك يقع الحوض وسط تلاقي كتل ووحدات مناخية - بيئية بين مراكز العمل الجوي المختلفة. وهذا التلاقي شكل تفاعلات متشابكة وأرضية متينة لظهور دمشق منذ آلاف السنين وإلى يومنا هذا.

## ثالثاً \_ الخصائص الطبيعية لحوض دمشق: 1- طبوغرافية الحوض:

تحتل منطقة حوض دمشق الجزء الشمالي من إقليم الجنوب الغربي، بمساحة قدرها ٣٦٠٠ كم<sup>٢</sup>، ولها شكل قريب الشبه بالمثلث. حدها من الشمال الغربي هو نهاية السلاسل التدمرية، وسفوح السلسلة القلمونية ومرتفعات قطنا، وجبل الشيخ، التي تفصلها عن إقليمي الجبال العالية، والوسط السوري. وفي الشرق تسير الحدود متفقة مع حافات لحف<sup>(٥)</sup> صبة الصفا الاندفاعية. البركانية وأرض ديرة التلول وإقليم البادية ( الصحراء السورية). أمّا في الجنوب فتتعرّج الحدود مسايرة أطراف الصبات الاندفاعية الفاصلة بين منطقة حوض دمشق ومنطقتي حوران وجبل العرب. وهو أكبر الأحواض الجبلية الهامشية وأهمها في سورية، ويقع عند أقدام جبال عنتر وقاسيون وجبل أبو العتا ومطلع السلاسل التدمرية عند الضمير، التي تُشرف عليه من الشمال والغرب. ويرتفع سطحه عن سطح البحر (٦٥٠ م) وسطياً، ليرتفع في الغرب إلى (٧٠٠-٧٢٥ م)، وينخفض في الشرق إلى متوسط (٦٠٠ م). وفي أخفض نقاطه إلى (٥٩٨ م) في جورة النفل في منخفض الهيجانة. حيث تشغل أرض العتيبة - الهيجانة أخفض أجزاء الحوض. وهما عبارة عن مستنقعين جفّ أحدهما وهو الهيجانة منذ خمسينيات القرن الماضي<sup>(٦)</sup>.

في شمالي سورية إلى حوض الزامبيزي في شرقي إفريقيا.

(٥) اللحف جمع لحاف، اسم يطلقه بدو المناطق البركانية في سورية على حافات الأغشية البازلتية التي تأخذ نهاياتها المتصلبة شكل حافات اللحف.

(٦) كانت الهيجانة بحيرة تنتهي إليها مياه نهر الأعوج. وكانت فيضاناته تغمر مساحات واسعة من أراضي مجراه الأدنى، فما كان من مالكيها الإقطاعي إلا أن حول مياه النهر إلى بقعة بئر القصب الأخفض بقناة حُفرت سنة 1940، فهذا الإجراء حَمَى الحقول من الفيضان، ووَقَّر أرضاً لزراعة القطن في أرض البحيرة المجففة.



ويغلب على طبوغرافية سطح الحوض الانبساط الشديد، ما عدا هوامشه الشمالية والغربية التي تلامس أقدام السفوح الجبلية، حيث تتحدر الأرض بتموجات واضحة.. من كافة أطرافه باتجاه أخفض أجزائه في منخفض العتيبة- الهيجانة. ومع هذا فإن أعداداً من التلال المنخفضة المبعثرة في أرجائه الشرقية خاصة، تبرز في حوض دمشق، وترتفع فوق سطحه نحو ١٢. ٥ م؛ بل وأكثر. مثل تل فرزات (الصالحية)، وتل الغريفة، وتل أسود، وتل الخزامي، وتل السكا، وتل حوش الريحان... وتلال أخرى أقل أهمية. وجميعها تلال اصطناعية أثرية تاريخية تمت في بعضها أعمال تنقيب. كذلك تنهد في الهوامش الجنوبية والشرقية من الحوض تلال ذات أصول طبيعية مثل تل الهيجانة، وتل السلطان بيازيد، وغيرهما من تلال اندفاعية الأصل. كما تنتشر تلال ورواب حول منخفض الهيجانة، وهي من أصل رسوبي بحيري، أبرزتها عمليات الحت والتعرية الريحية على شكل تلال ونواشز وخرائب، تُعرف بالقارات والياردانغات<sup>(٧)</sup>.

ومع ذلك فإن الصفة الأساسية الغالبة على طبوغرافية الحوض هي أنه منبسط (سهلي)<sup>(٨)</sup> مغلق، تحيط به جبال ومرتفعات ترقى إلى ١٠٠٠-١٥٠٠ م فوق سطح البحر من جهة الشمال الغربي، وإلى أقل من ذلك في الشرق والجنوب. ويعد أهم وحدة جغرافية إقليمية في سورية، وفي منطقة شرقي البحر المتوسط. وتكمن أهميته في موقعه الجغرافي بين عالمين مختلفين اختلافاً جغرافياً بيئياً طبيعياً من جهة، وجغرافياً بشرياً. سكانياً واقتصادياً من جهة ثانية، هما عالم الجبال المحيطة بالمنطقة، وعالم الحوض نفسه والبادي الممتدة شرقه وجنوبه.

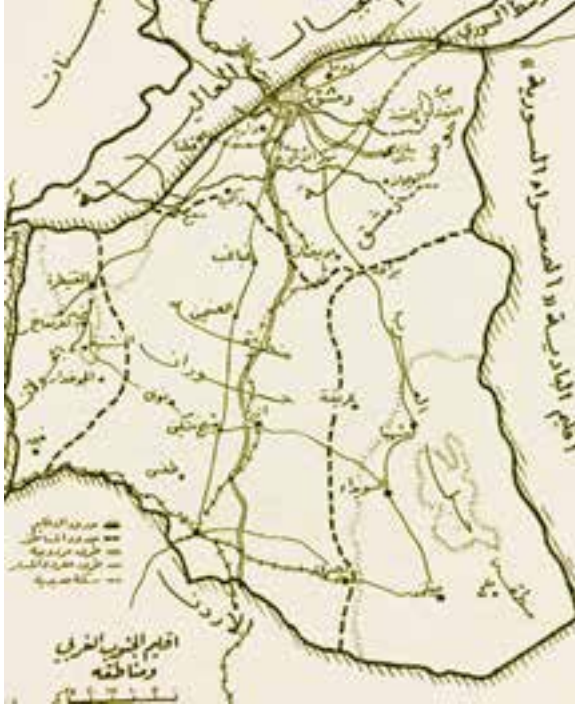
## ٢- حوض دمشق ونشأته:

حوض دمشق واحد من التضاريس السورية الموروثة عن تضاريس أواخر الحقبة الثالث والرابع الجيولوجيين، ومشاركة الحركات البنائية في شرقي الانهدام السوري- الإفريقي، التي رسمت معالم الطيات الجبلية للسلاسل التدمرية، وسلاسل القلمون وأحواضه البينية والهامشية، فتكوّن بينها حوض دمشق الواقع على خاصرة نهايات سلسلة القلمون الثالثة. فالأصل الجيولوجي في حوض دمشق هو أنه مقعر بنائي (تكتوني)، تشكّل في منطقة تتعامد فيها وحدات بنائية لمجموعتين بنائيتين هما: مجموعة السلاسل الجبلية الالتوائية. المتصدعة من (النموذج السوري- الجرمانى) المتمثلة بجبال لبنان الشرقية والقلمون، ومجموعة ثانية هي بُنى وصدوع وهدة جبل العرب ونهوض الأردن. وعند منطقة تماس هذه الوحدات وخطوط الصدوع تشكّل منخفض حوضي بنائي مُقعر، أسهمت الحركات البنائية الالتوائية والصدعية في تكوينه<sup>(٩)</sup>.

وتتألف أرضية هذا المنخفض الحوضي من طبقات رسوبية من الصخور الكلسية الكريتاسية والإيوسينية- النيوجينية، غشتها صبات اندفاعية من الصخور البازلتية الميوسينية والأحدث منها، التي انساحت نهاياتها إلى هوامش الحوض، وبقيت كتلتها الرئيسة بارزة لتؤلف مرتفعات (٧) الiardاغ تسمية تركستانية لتلال تتشكل بالحت الريحي في صخور طرية بحيرية الأصل. كما هو الحال في ترسيبات بحيرة الهيجانة.

(٨) السهل في الجغرافيا هو كل أرض منبسطة تقع دون 300م فوق سطح البحر، وماعدا ذلك فهو سهل مرتفع في حوض جبلي أو خارجه.

(9). Geologie von Syeien und dem Libanon; Wolfart, R.



إقليم الجنوب الغربي لدمشق ومناطقه

وتلال جنوب الحوض. ويُعدُّ الحقب الثالث الجيولوجي زمن نشاط الحركات البنائية المولدة للتضاريس السورية.

ارتسمت في دور الباليوجين (الثالث القديم) منه، الخطوط الأساسية للوحدات التضريرية السورية الكبرى، وتجدد نشاطها في دور النيوجين وزمن البليوسين (نهاية الحقب الثالث) منه، ومطلع زمن البلايستوسين (الرابع القديم) وعصوره الجليدية، الذي تشكلت فيه الأحواض الداخلية والبينية، ومنها حوض دمشق. أعقب ذلك نشاط بركاني رباعي أدى إلى تشكُّل أغشية اندفاعية أحدث في الشرق وفي الجنوب.

وفي هذه المرحلة وعلى امتداد الحقب الرابع الجيولوجي، تشكَّلت في الحوض بحيرة مياه عذبة، اتَّسعت إلى أن ملأت الحوض مكونة بحيرة دمشق القديمة، التي أصبحت مستوى أساس مياه الأنهار

والسيول، التي نشط ترسيب حملتها من اللحقيات والمجروفات في قاع البحيرة، بحيث وصلت ثخانة الرسوبيات البحرية في أعماق أجزاء الحوض، بين جسرين ومرج السلطان، لنحو ٤٠٠ م من المارن، والكلس البحيري، والطف الكلسي، والكونغلوميرات، وأقل من ذلك على الأطراف. لتصبح هذه اللحقيات والتوضعات النقضية أكثر امتداداً مع اتساع مساحة ما تكشف من أرض البحيرة القديمة نتيجة تراجع مياه البحيرة عنها في الرباعي الأعلى، وما أعقبه من مناخ قلَّ فيه ما يرد البحيرة من مياه، إلى جانب تزايد التبخر منها. وترافق ذلك مع انتشار مخاريط الانصباب والأنقاض على جوانب البحيرة عند مخارج الأنهار والأودية من الجبال؛ أكبرها مخروط بردى والأعوج، والضمير ومنين وغيرهما.

وهكذا صار حوض دمشق مؤلفاً من كورتين متميزتين جيولوجياً استراتيجرافياً، وتربياً؛ هما كورة الأراضي الرسوبية البحرية في وسط حوض دمشق وشرقيه (المرج)، وكورة الأراضي الرسوبية اللحية. النقضية في الغرب والهوامش الشمالية والغربية (الغوطة)<sup>(١٠)</sup>.

### ٣\_ التطور الجيومورفولوجي- المناخي للحوض:

ترتبط التطورات الجيومورفولوجية - المناخية لحوض دمشق بالعصور الجليدية للحقب الرابع الجيولوجي بدوريه: البلايستوسين (القديم) والهولوسين (الحديث المعاصر)، ارتباطاً كبيراً. ففي دور البلايستوسين سادت في أوروبا وخارجها العصور الجليدية الأربعة المعروفة: وهي الغونز (أقدمها)،

(10) the Geological map of Syria (1: 50.000); Ponikarov, V. P. And others.



والمندل، والرّس، و(الفورم أحدثها)، إضافة إلى العصور البيئية الدافئة في هذا الدور، التي تُقابلها في العرّوض الجغرافية الدنيا عصور مَطيرة وعصور بَينِيّة، كما هو حال سورية، وبحيرة دمشق ذات التطور المتفق مع هذا التعاقب الزمني<sup>(11)</sup>.

ولقد أظهرت الدراسات الجيومورفولوجية، ونتائج البحوث القائمة على تحليل غبار الطلع، وقياسات الفحم ١٤، والتسلسل الطبقي لتوضّعات الحوض، وغيرها من طرائق تحديد الأعمار، ودراسات الأوضاع البيئية، أن بحيرة قديمة واسعة الانتشار ترجع إلى عصر (الرّس Riss) كانت تملأ حوض دمشق حتى ارتفاع ٧٥٠-٧٠٠م فوق مستوى سطح البحر (الحالي)، تشكّلت حولها مخاريط انصباب مهمة، أبرزها مخروط انصباب بردى. إضافة إلى مخاريط صغيرة على هوامش الجبال والمرتفعات المُطلّة على البحيرة مباشرة.

فلمعرفة الطبيعة السهلية المنبسطة والضعيفة التموّج لحوض دمشق وتربته لا بد من الرجوع إلى ماضيه الجيولوجي والمناخي- المائي في أواخر الحقب الرابع الجيولوجي أي قبل ٢,٥ مليون سنة فزي: أ-عصر (الرّس Riss) الذي بدأ قبل ٤٨٠,٠٠٠ سنة، وأواسط الحقب الرابع المقابلة للعصر الحجري القديم الأدنى، امتلأ الحوض بمياه بحيرة كبيرة غمرت أغلب أجزاء الحوض. ففي هذه الفترة من عمر الأرض تميّز شرق البحر المتوسط بمناخ رطب غزير الأمطار مع درجات حرارة منخفضة حتى معتدلة بل ودافئة أحياناً. أعقبتها ظروف مال فيها المناخ نحو الجفاف وارتفاع درجات الحرارة وزيادة التبخر مع تراجع صبيب الأنهار والسيول، فأدّى ذلك إلى تقلص حجم البحيرة وانكماشها وتراجع ضفافها باتجاه وسط وشرقي حوض دمشق، وتحول أرضها إلى الكثير من البحيرات الصغيرة والجزر الواطئة المنتشرة في قاعها<sup>(12)</sup>.

ب- أما في عصر (الفورم Würm) الذي بدأ قبل ٢٠,٠٠٠ - ٢٢,٠٠٠ سنة فلقد عاد المناخ ليصبح بارداً ورطباً ومطيراً، ولكن بدرجات أقل مما كان عليه الحال في عصر الرّس، كما تخلّته فترات ارتفعت فيها الحرارة، فتشكّلت في الحوض بحيرة أصغر احتلّت الجزء الشرقي المنخفض، تتماشى شواطئها مع حدود كورة المرج شرق الغوطة. بعدها ومنذ نحو ١٠,٠٠٠ سنة وحتى اليوم (أثناء الدور المعروف ب: الهولوسين) مال المناخ إلى الجفاف، وتخلّته فترات مناخية أرطب وأقل حرارة وأكثر أمطاراً نسبياً خاصة بين ٣٠٠٠-٨٠٠٠ سنة مضت، استمرت إلى اليوم. فكانت المحصلة زوال بحيرة دمشق وتحول بقاياها اليوم إلى مجرد مستنقع ضحل مساحته ٥ - ٦ كم مربع ندعوه ببحيرة العتيبة<sup>(13)</sup>.

(11) حد الثلج الدائم في الرباعي البلايستوسين (الفورم) وارتفاعه في الجبال السورية (لبنان الشرقية وجبل الشيخ) متباين حسب تقديرات (لوي) وحسب نتائج قياسات باقي الباحثين ميدانياً: كايزر 2100-2250 م - عبد السلام 2350 م- ميسرلي 2700 م - لوي 2300 م- 2600 م - بوتزر 2800 م. فإذا أخذنا بأرقام كايزر ورأيه، وجدنا أن قسماً كبيراً من قمم الجبال العالية في جبال لبنان الشرقية، كان فوق حد الثلج الدائم القديم، وكان معرضاً لتشكل الجليديات. أما إذا أخذنا برقم بوتزر، فمعنى ذلك أن قمة جبل الشيخ الواقعة فوق الـ (2800 م)، أي ارتفاع (14 م) فقط كان داخلها في نطاق الثلج الدائم القديم. وفي كلا الرأيين بعض التطرف والمبالغة حسب اعتقادنا، لأن المظاهر التضريسية الموروثة عن أشكال سابقة في أعلى جبل الشيخ، الظاهرة على شكل حلبات صغيرة من النوع الملقي، تقع خارجها على ارتفاع يحوم حول (2400-2450 م).

(12)The Near East during the Last Glaciation; Butzer,K.W.. p. 367-369.

(13) Reinhard WOLFART HYDROGEOLOGY OF THE DAMASCUS BASIN (SOUTHWEST-SYRIA) Bundesanstalt für Bodenforschung, Hannover ABSTRACT The description of the geology and hydrogeology of the Da-



خريطة تبين الوحدات البنائية (التكتونية) في الجنوب السوري وإقليم الجنوب الغربي منه.

ولم يتغير الوضع في الهولوسين الأوسط الذي ساد قبل ٣٠٠٠-٨٠٠٠ سنة مضت كثيراً، علماً أن فترة جفاف ملموسة سادت المنطقة بين عامي ٦٠٠٠-٦٣٠٠ ق.م. ونتيجة لذلك انكشف أرض البحيرة عن سطح منبسطة متموج تعلوه ربوات قليلة الارتفاع، منها موقع مدينة دمشق الأول الذي قام على ربوة (تل السماكة) بين حي مئذنة الشحم وحي الخراب على الجانب الأيمن (الجنوبي) من نهر بردى (٥ - ٦ أمتار فوق المستوى العام لأرض دمشق)، كما استفاد الأعمار القديم لحوض دمشق من العديد من الروابي التي أصبحت تلالاً صناعية.

#### ٤- تربة حوض دمشق:

يتألف الغطاء التري لحوض دمشق من زمرتين أساسيتين من الترب وهما:

- زمرة الترب الغدقة والمستنقعية في كورة المرج في النصف الشرقي من الحوض.
- زمرة الترب اللحية الغالبة على كورة الغوطة في النصف الغربي من الحوض وهوامشه الشمالية والغربية، وعلى امتداد وادي نهري بردى والأعوج.

ويتفق هذا التقسيم الحاد بين الزمرتين مع ما ذكرنا في فقرة التطور المناخي- الجيومورفولوجي، نتيجة آلية الترسيبات البحرية في نطاق مياه البحيرة من جهة، والترسبات النهرية- السيلية على سطح الترسيبات البحرية التي تراجع عنها ماء البحيرة، وانكشفت لتستقبل حمولات الأنهار والسيول المنقولة من المرتفعات والهضبات المحيطة بالبحيرة/ الحوض من جهة أخرى<sup>(١٤)</sup>.

وأبرز أصناف الزمرة الأولى هي التربة الفاتحة، والغدقة المائلة للسواد، ثم التربة البنية الغدقة، حول منخفض البحيرة السابقة للعتيبة، وأرضها ذات التربة المستنقعية، وهي تربة ذات ملوحة واضحة تتناقص باتجاه الهوامش الخارجية للمنخفض، لا سيما باتجاه الغرب في منطقة المرج، حتى حدود امتدادها التي تنطبق على حدود شواطئ بحيرة البلايستوسين الأعلى وذروة الفورم (خط مرج السلطان).

أمّا أصناف الزمرة الثانية فمتعددة، وأكثرها انتشاراً هي التربة البنية اللحية للبحر المتوسط.

mascus Basin is based on research carried out in Syria in 1961/62.

(14) The Soil Map of Syria; ACSAD. Scale 1: 1 000 000. Damascus 1985.





وهي تربة خصبة وعميقة، وتُغطّي أرض كورة الغوطة وهوامش المرتفعات المحيطة بالحوض، تليها في الأهمية التربة البنية - الحمراء المتوسطة، ثم اللحيقيات النهرية الغرينية والطينية الخصبة، وكذلك الترب المتكونة على أرضية من الصخور البازلتية الاندفاعية على هوامش الحوض. وعموماً فإن ترب الزمرة الأولى ذات الأصل الرسوبي البحيري مغطاة بطبقة رقيقة من الغضار، والترسبات المستتعية، وهي قليلة الخصوبة، وتُناسب نموّ الأعشاب الطبيعية والزراعة الحقلية، عُرِفَت منطقة انتشارها بـ(المرج)، في حين تتألف ترب الغرب والهوامش من أصناف ذات أصول لحقية، وبنية عميقة، تصلح للزراعات الكثيفة والأشجار المثمرة وغيرها، فكانت أساساً للـ(الغوطة التي تعني: البستان).

فالتفريق بين كورتي المرج والغوطة في حوض دمشق ذو جذور طبيعية تربية ورسوبية (ستراتيغرافية) جيومورفولوجية واضحة. (ومع اتساع مساحة ما يتكشف من أرض البحيرة القديمة نتيجة تراجع مياه البحيرة عنها في الرباعي الأعلى وما بعده، كانت التوضعات اللّحقية تتقدّم باتجاه الشواطئ المتراجعة للبحيرة حيث تنتشر مخاريط الانصباب والأنقاض عند مخارج الأنهار والأودية من الجبال، كما تقدّم ذكرها، أكبرها مخروط بردى والأعوج والضمير ومنين<sup>(15)</sup>).

## ٥- مناخ الحوض:

سورية الطبيعية هي ملتقى كتل هوائية عديدة، قادمة من مصادر مختلفة، ذات خصائص متميزة، ممثلة بمركز الضغوط العالية السيبيرية، ومركز الضغوط الجوية المنخفضة الهندية- الموسمية، ثم مركز الضغوط الجوية المنخفضة الآيسلندية، وأخيراً مركز الضغط الجوي الآصوري المرتفع. وبأخذ حركات الهواء والرياح بتفاوت الضغوط وبقوة الانحراف بحسب قوة (كوروليس) ومحاور التضاريس بالحسبان يصبح التأكيد على الهوية القارية - شبه القارية لسورية ودمشق بدهياً، إذ ينتمي مناخ الحوض إلى (المناخ المتوسطي لشرق حوض البحر المتوسط)<sup>(16)</sup>، وهو نموذج متوسطي شبه جاف، تُعيق تضاريسه المحيطة بحوض دمشق وصول المؤثرات البحرية إليه، مقابل جهات الشرق والجنوب الشرقي من الحوض المفتوحة أمام وصول الرياح والمؤثرات القارية للبرّ السوري والصحاري العربية وراءه. لذا أصبح الحوض «حجيرة مناخية حوضية» في نموذج المناخ المتوسطي شبه الجاف<sup>(17)</sup>.

وهو مناخ أقرب إلى أشباه الصحاري، تصل فيه درجات الحرارة السنوية المتوسطة في دمشق وجديدة الخاص إلى ١٧ و ٢، ١٧ درجة مئوية. ومتوسط شهر كانون الثاني بين ٦،٦

<sup>(15)</sup> Niederschlagsvariabilitaet und Unbau-Unsicherheit in Syrien; Zimpel, H.G. s.89-114..

<sup>(16)</sup> World Bank Climate Change Data Portal, accessed on April 21, 2010.

<sup>(17)</sup> نظراً للأهمية البالغة للمسألة المائية في حوض دمشق، ومستقبل المدينة القائم على الثروة الزرقاء، قامت حول مصادر المياه وكمياتها ونوعيتها، وتلبيتها حاجات السكان، وتطور حصة الفرد من المياه، وتزايد أعدادهم المطرد، دراسات وبحوث كثيرة بعد استقلال سورية وإنشاء مؤسسات ووزارات تُعنى بهذه القضايا. وحظي حوض دمشق ونهرا بردى والأعوج بنصيب الأسد من تلك الدراسات، وبصورة خاصة على يد رائد الدراسات المائية الدكتور محمد شفيق الصفدي، ومن جاء بعده من خبراء سوريين وألمان وغيرهم، ممن أغنوا البحوث وقدموا الحلول الممكنة لمجابهة مشكلتي العجز المائي، بحرّ الماء من أحواض مائية أخرى، وأخطار تلوث المياه.



خريطة جيولوجية لحوض دمشق تظهر فيها تقاطع خطوط الصدوع، ومستويات الرسوبيات في بحيرة دمشق الرباعية. والأراضي البركانية المحيطة بها (ولفرات ١٩٦٧)

و٧،٢ درجة، ومتوسط شهر آب بين ٢٦،٣ و ٢٧،٢ درجة في كل من المحطتين.

أمّا معدلات درجات الحرارة العظمى فتراوح بين ٣٤- درجة، ومعدلات الحرارة الدنيا بين ٦ و ٨ درجات مئوية. كما تؤكد مقادير التبخر السنوي بين ١٧٥٠- ٢٢٢٠ ملم، ومتوسطات كميات الأمطار السنوية البالغة ٢١٢ ملم في دمشق، و١٣٥ ملم في جديدة الخاص، على الطبيعة شبه الجافة لمناخ حوض دمشق.

وتهبُّ على الحوض رياح تغلب عليها المحصلة الغربية والجنوبية الغربية، التي يزداد نشاطها وتكرارها في فصل الشتاء الماطر، كما تصله رياح جافة شرقية وجنوبية حارة في الصيف والخريف، تُثير الغبار وتجعل الطقس سديمياً خماسينياً لعدة أيام في الحوض كله، لا سيما في أنحائه الشرقية. وبالاتجاه شرقي الحوض تزداد الأوضاع القارية وضوحاً وشدة، كما تتزايد الفروق الحرارية ومقادير التبخر، مع تناقص الأمطار

السنوية من ٢٠٠ ملم إلى ٧٥ ملم في الاتجاه نفسه. وعلى أساس هذه المعطيات التّؤئية والمناخية تدخل منطقة حوض دمشق في نطاق البيئة المناخية (الجافة العُلوية في الغرب والجافة الدنيا في الشرق، بحسب تصنيف إمبرجيه للبيئات المناخية في النطاق الجاف شبه المداري). كذلك تؤكد مقادير التبخر السنوي بين ١٧٥٠- ٢٢٢٠ ملم، ومتوسطات كميات الأمطار السنوية البالغة ٢١٢ ملم في دمشق، و١٣٥ ملم في جديدة الخاص، تؤكد على الصفة شبه الجافة لمناخ حوض دمشق.

## ٦- مياه الحوض:

كانت استقادة الإنسان من الثروة الزرقاء في البداية محصورة بمياه الأنهار والينابيع، إلى أن امتلك المعرفة والتقنية الكافية للوصول إلى المياه الجوفية عن طريق حفر الآبار والفجارات (القنوات الرومانية)، وجرها بالقنوات الحديثة والأنابيب فيما بعد. وإضافة إلى مياه الصرف الصحي المعالجة في محطة عدرا<sup>(١٨)</sup>.

ويعتمد مصدر أغلب مياه الحوض العذبة ونهرية بردى والأعوج وما زال، خارجياً، على كمية مياه الهطل التي يستقبلها الحوض المائي للنهرين بنحو ١٣٠٠ مليون م<sup>٣</sup> سنوياً، تستأثر منطقة حوض دمشق منها بنحو ٥٨ر٥٪، أي ما يعادل ٥٧٥ مليون م<sup>٣</sup> من المياه السطحية، وقرابة ١٦٥ مليون م<sup>٣</sup> من المياه الجوفية، وعليه يُقدّر مجموع الثروة المائية العذبة المتاحة في منطقة حوض دمشق الجغرافي بنحو ٧٤٠ مليون م<sup>٣</sup> سنوياً.

(١٨) المياه الجوفية في سورية: شفيق الصفدي، المهندس العربي، العدد 5- 1962، دمشق.



ينبع نهر بردى من خارج الحوض، من أصل جبل الشير منصور في حوض الزبداني، ويشق طريقه عبر جبال إقليم الجبال العالية. ليدخل حوض دمشق بعيد خانق الربوة. وتقدر غزارته عند مخرجه من الجبال بنحو ١٤ م<sup>٣</sup>/ثا، قد ترتفع في بعض الفيضانات الشتوية إلى متوسط يصل إلى نحو ٧٩ م<sup>٣</sup>/ثا، وإلى قرابة ١٠٠ م<sup>٣</sup>/ثا أحياناً. لكنها قد تنخفض في مواسم الشح إلى ٤ - ٥ م<sup>٣</sup>/ثا. ويقدر وسطي التصريف السنوي له بنحو ٤٠٠ مليون م<sup>٣</sup>. (٤٧٥ مليون م<sup>٣</sup>، بإضافة مياه السيول)<sup>(١٩)</sup>.

ويبلغ طوله بين منبعه ومنتهاه في مستنقع العتيبة ٧١ كم. ومعدل إنحداره ٠,٠٠٢٦. ويتفرع بردى قبل دخوله الحوض إلى ست قنوات مشتقة منه. منها قناتان يساريتان هما قناة تورا، وقناة يزيد. وبقية القنوات يمينية وهي قنوات: المزاوي، والديراني، والقنوات، وبانياس. لتعود مياهه وتشكل في أراضي الغوطة، شبكة قنوات ثانية تتألف من قنوات: العقرباني، والداعيانى، فالملحي، ثم الزيديني. تليه شبكة قنوات ثالثة تتألف من قنوات: البالاوي، والزابوني، والجسريني، والمملك، وبيت نايم، والشيداني، نتيجة استعادة نهر بردى قسطاً من حيويته؛ بما يتزود به من مياه كثير من العيون الصغيرة المتفجرة في قاع النهر وجوانبه في منطقة زور بردى، وما يستعيده من المياه عن طريق ارتشاح المياه من قنوات الشبكتين السابقتين.

ومع تجدد حيوية النهر من مياه عيون الأليا بداية منطقة المرج (القلايا)، تتشكل شبكة قنوات رابعة هي: قنوات الحرستاني (نسبة إلى حرستا القنطرة)، والبلياني، وحوش المتين، ثم ثلاث قنوات يسارية هي قنوات: حوش الصالحية، وقناق البحيراني، والنشابية. حتى ينتهي به المطاف في منخفض العتيبة. وهكذا كان ابن الحوض يعتمد في عيشه وبقائه على تعامله المتوازن مع هذه الثروة الحيوية آلاف السنين، حتى العقد السادس من القرن الماضي، حين بدأت نوعية المياه في الحوض بالتدهور، نتيجة تلوث مياه العديد من القنوات. والسبب الأول والأخير لكل هذا: هو التضخم السكاني الذي تعيشه مدينة دمشق منذ ستينيات القرن العشرين، وانتقلت عدواه إلى معظم التجمعات السكانية القريبة والبعيدة عن المدينة.

أما النهر الثاني في المنطقة فهو نهر الأعوج، الذي تقع منابعه في جبل الشيخ في إقليم الجبال العالية أيضاً. ويتألف من التقاء ما يتبقى من مياه نهر بحيران - السبيراني، ونهر الجناني. ويروي القسم الجنوبي من منطقة حوض دمشق. وتقدر غزارته المتوسطة في حوض دمشق بنحو ٢,٥ م<sup>٣</sup>/ثا، ترتفع في موسم الفيضان إلى معدل ١٥ م<sup>٣</sup>/ثا، وتتندى إلى متوسط ٠,٧ م<sup>٣</sup>/ثا في موسم الشح، ويُقدر معدل التصريف السنوي للأعوج بنحو ١٠٠ مليون م<sup>٣</sup>. وتشتق منه مجموعة من القنوات أبرزها قناة (ديراني الأعوج) المتجهة شمالاً لري أراضي وكروم عنب مدينة داريا. كانت مياه نهر الأعوج قبل نصف قرن من الزمن تنتهي في منخفض الهيجانة قبل تحويلها عنه. أما اليوم فلم تعد مياهه تتجاوز قرية نجها بل وقرى قبلها في فصل الجفاف، جراء استنزافها في أعالي النهر.

كذلك يمتلك حوض دمشق ثروة مائية جوفية<sup>(٢٠)</sup>، أصبحت اليوم مصدراً مهماً في مجال الري والشرب والاستعمالات الأخرى، بعد عجز المياه السطحية عن تلبية حاجات السكان المتزايدة

(19) e probleme de l'eau au Liban et en Syrie; Mazloum, M. : L. P. 33- 70.

(20) Groundwater in Syria; BURDON, D.J., MAZLOUM, S. and SAFADI, p. 377-388, 2 figs.



تطور بحيرة دمشق الرباعية

من المياه. وتُقدَّر هذه الثروة بنحو ٢٢,٥٪ من مجموع مياه الحوض العذبة، ينبجس قسم منها من أرض المنطقة على شكل ينيابيع هي (القلايا، وأوتايا، والطبيبية...)، والينيابيع المحلية الأخرى في المنطقة مثل عيون الحاروش قرب قرية دير العصافير، التي تُشكّل نهر الحاروش (أو الشويحة). وتكثر هذه الينيابيع في الشريط الفاصل بين الرسوبيات البحرية لكورة المرج، والتوضعات اللحيقية لكورة الغوطة. لكن غزارة مياه معظمها قد تراجعت أو جفّت جراء استنزاف المياه الجوفية بشكل كبير. ويُقدَّر وارد المياه الجوفية السنوي في الحوض بنحو (١٣ مليون م<sup>٣</sup>). وتتجه

حركتها إلى منخفض العتيبة والهيجانة. كما تزداد درجة ملوحتها مع حركة المياه نحو الشرق، حيث تصل أعلى درجاتها حول العتيبة (٢ - ٢٠ غ / ل) وحول الهيجانة وشمال غربيها (٢٣ غ / ل). والمياه الجوفية في الحوض موزعة في جيوب بشكل غير مُنظَّم وبأعماق غير واحدة في حوضاته المائية الفرعية. ومع ذلك ما زالت مياه حوض دمشق صالحة للري وللشرب والاستعمالات المنزلية على العموم بدرجات متفاوتة<sup>(٢١)</sup>.

أما المصدر الرئيسي لمياه حوض بردى والأعوج المائي فهو الهطل السنوي المقدر بمتوسط قدره ٢٦٥٩ مليون م<sup>٣</sup>/سنة، يبقى منها بعد التبخر وتوابعه نحو ٨٥٠ مليون م<sup>٣</sup> سنوياً. أما المياه الراشحة فلا تُعدُّ فاقداً، لأنها تشكل مورداً مائياً ضمنيّاً مهماً في تغطية احتياجات الري في الغوطة والمرج. ولقد تم تقدير كميات المياه الممكن استثمارها في جميع أجزاء حوض دمشق بما يعادل ٥٥٠ - ٥٩٥ مليون م<sup>٣</sup>/سنة. من المياه المتجددة<sup>(٢٢)</sup>.

وفي الحوض كميات من المياه غير المتجددة، تُشكّل ما يُعرف بـ: (الاحتياطي الطبيعي). وتُقدَّر كميتها بنحو ١٤٢٦ مليون م<sup>٣</sup>. يُستحسن عدم المساس بها، إلا في حالات الأزمات الخانقة. كذلك يمتلك حوض دمشق مورداً مائياً غير تقليدي، يرجع استثماره إلى أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، هو مياه الصرف الصحي المعالج. ويقدر حجمها لعام ١٩٩٠ بنحو ٢٥٧ مليون م<sup>٣</sup>، ولعام ٢٠٠٠ بأكثر من ٤٣٥

(21) Developing Water Supply System for Damascus City; JICA (1996), Phase I, Ministry of Environment documents.

(22) World Bank (WB), United Nation Environmental Program (UNEP), and Ministry of Environment (1997): PEAP for Barada Basin, Ministry of Environment documents, Damascus



مليون م<sup>(٢٣)</sup>، ويقدر لها أن ترتفع إلى نحو ٦٥٩ مليون م<sup>٢</sup> عام ٢٠١٠ (بحسب تقديرات مديرية الحوض). ومع كل هذا فإن مياه حوض دمشق تعاني من الضغوط الهائلة عليها، لتأمين احتياجات السكان الذين تتزايد أعدادهم سنوياً، وبوتيرة تعجز معها كميات المياه المتاحة عن تلبية احتياجاتهم. ولا سيما في السنوات العجاف والجافة، التي تقل فيها الأمطار<sup>(٢٤)</sup>.

وتتغذى طوابق المياه الجوفية في حوض دمشق من مصدرين هما المياه الجوفية الواردة إلى الحوض من الكتل الجبلية الغربية، وبقية المرتفعات المحيطة بالمنطقة، وتتميز بنوعيتها الجيدة لمرورها عبر مصفاة الصخور المنفذة واللحقيات الرباعية. والمصدر الثاني هو الأمطار الهاطلة على أرض الحوض سنوياً وهي قليلة الأهمية قياساً إلى المصدر الأول، الذي يزود خزانات المياه الجوفية بأكبر كمية من المياه العذبة. ولقد ظلت المياه الجوفية وحواملها سليمة، وطبيعية متوازنة حتى أواخر خمسينيات القرن الماضي، حين بدأ الحوض يشهد غزواً كاسحاً وانتشاراً واسعاً وسريعاً لعشرات آلاف الآبار المزودة بالمضخات المائية. فأدى ذلك إلى انخفاض مستويات المياه الجوفية في الحوامل من ٤٣٠٠ م سابقاً، إلى عشرات الأمتار، بل وأكثر حالياً<sup>(٢٥)</sup>.

### عين الفيحة:

نبع الفيحة هو المصدر الرئيسي لمياه الشرب العالية الجودة والنقاء (قساوته ١٦ درجة فرنسية) لمدينة دمشق. يصل إنتاجه السنوي إلى نحو ٢٠٠ مليون متر مكعب، مع تفاوت غزارته بين الربيع والخريف، إذ قد تصل غزارته لأكثر من ٢٠ م<sup>٢</sup>/ثا، لكنها قد تتدنّى لأقل من ٢ م<sup>٢</sup>/ثا في سني الشح.. فمتوسط غزارته ١٢ م<sup>٣</sup>/ثا، فيما غزارة نبع بردى هي ٦,٥ م<sup>٣</sup>/ثا. وهذا يدل على دوره في حقلي الري والشرب، خاصة بعد جرّ مياهه إلى المدينة سنة ١٩٠٦، ووصوله إلى ضواحيها. وتصل حاجة سكان مدينة دمشق اليوم إلى ما يزيد على ٧ م<sup>٢</sup>/ثا وسطياً، لكنه ومع ازدياد الطلب على ماء الفيحة زوّدت المدينة بمجموعة من الآبار في المدينة وضواحيها لنضج أكثر من ١٠٠ ألف م<sup>٣</sup> يومياً، لتغطية العجز في شهور الشح<sup>(٢٦)</sup>.

<sup>(23)</sup> Environmental and Energy Management Research Unit (EEMRU), School of Chemical Engineering at the National Technical University of Athens (NTUA), INECO (Institutional and Economic Instruments) Toolbox: Water quality degradation in the Barada River Basin, Syria, accessed on April 4, 2010.

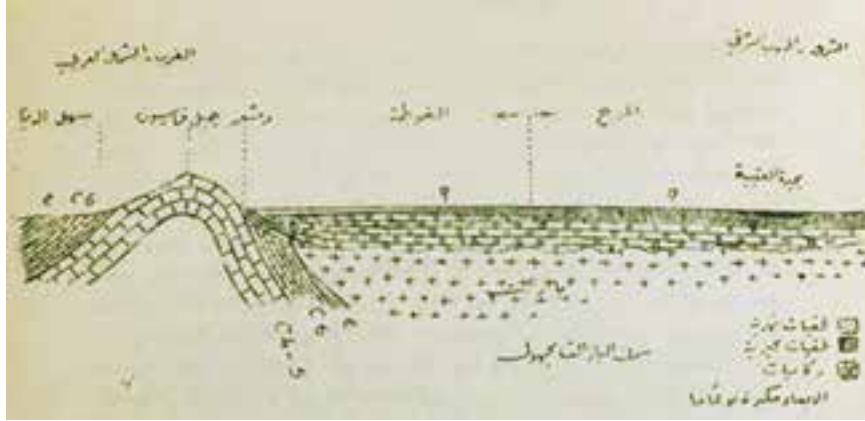
Middle East Economic Digest: Italy takes Damascus wastewater contract, January 24, 1992.

<sup>(24)</sup> Studies on the drinking water supply of the new Damascus airport near Ghazlaniye; WOLFART, R. P. 1-25, 4 maps, 1 table. Damascus 1961.

<sup>(25)</sup> The Household Water Crisis in Syria's Greater Damascus Region; Elie Elhadj. SOAS Water Research Group, Occasional Paper 47

Water Resource Management in the oasis of Damascus; Masanori Naito, Man's Role in Changing Phases of Desertification, in: Wolfgang Meckelein/Horst Mensching [Eds.]:Resource Management in Drylands, 1985.

<sup>(26)</sup> قام (ماسانوري نايّو) من جامعة طوكيو بتحضير أطروحة نيله درجة الدكتوراة عن (حوض دمشق) 1983-1981 بإشراف أ.د. عادل عبد السلام. طوال وجوده في سورية.



مقطع جيولوجي لحوض دمشق (عبد السلام 1900)

## رابعاً - أضخم تجمع سكاني سوري:

### ١- إعمار قديم ومتصل:

يُعدُّ حوض دمشق مهداً الكثير من مواقع إنسان العصور القديمة، وخاصة مواطن إنسان العصور الحجرية على هوامشه المرتفعة المطلّة على شواطئ بحيرة دمشق الرباعية. وقد اتّصف إعمار الحوض باستيطانه على مراحل، ارتبطت بتراجع شواطئ البحيرة وانكماشها. ففي مستوطنة تل أسود شرق قرية جديدة الخاص تم تحديد عمر الاستيطان بنحو ٧٩٠٠ - ٧٦٠٠ قبل الميلاد، أما موقع الغريفة غرب العتيبة وبحيرتها السابقة فيعود إلى ٦٩٠٠ - ٦٠٠٠ قبل الميلاد، وتل الخزامي في موقع مطار دمشق الدولي إلى نحو ٤٥٠٠ - ٤٠٠٠ قبل الميلاد. ويُعدُّ تل الرماد الواقع على وادي شركس، غرب مدينة قطنا، مستوطنة زراعية قامت على الهامش البعيد للشاطئ الغربي لبحيرة دمشق بين ٦٣٠٠ - ٦٠٠٠ قبل الميلاد. كذلك قام تجمع سكاني في تل فرزات قرب قرية حوش الصالحية، تم تقدير عمره بين الألف الثاني قبل الميلاد، والعهد الروماني المتأخّر، وتل السكا<sup>(٢٧)</sup>.

ولقد استمرَّ إعمار الحوض تدريجياً، فقامت النواة الأولى لمدينة دمشق (كقرية) على الضفة اليمنى (الجنوبية) لنهر بردى. وذكّرت لأول مرة في التاريخ في قائمة المدن التي احتلّها الفراعنة في القرن الخامس عشر ق. م.، وظهرت كعاصمة للآراميين في القرن الحادي عشر ق. م. بعدها اتسع عمران الحوض وازدادت أعداد التجمّعات السكانية فيه، إبان الحكم اليوناني والروماني والبيزنطي. وفي العهد الأموي توسّع الاستيطان على امتداد قناة يزيد، آخر قناة ري اشتقّت من بردى. كما نشأت قرى جديدة في الغوطة، وبشكل خاص في كوره المرج.

وتشهد الآثار الباقية من العصور الرومانية والبيزنطية وما بعدها على توسع إعمار الحوض، على الرغم من تعرّض المنطقة للغزو والتخريب في فترات تغير الحكام والعهود والصراع للسيطرة على دمشق، لا سيما في زمن غزو تيمورلنك لدمشق وتخریب القرى والمزارع عام ١٤٠٠ م.

Durchführung einer Klimaimpaktstudie am Beispiel des Figh-Projektes (Implementation of a Climate Impact Study: The Example of the Figh Project); Kunstmann, Harald. Presentation at KfW Development Bank, 15 February 2012. Karlsruhe Institute of Technology (KIT).

(27) رسالة (من ملك دمشق إلى أخي «زمري ليم» حاكم «مملكة ماري»، علمت أن مدينتك قد تعرضت للهجوم، أرسل لي آخر أخبارك). النص المسماري المكتشف في «تل سكا»، الذي استمرت عمليات التنقيب في الموقع «أحمد فرزت طرقي» 20 عاماً، منذ العام 1989، ويعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وهو الأول من نوعه في منطقة حوض دمشق الذي تم فيه اكتشاف قصر في السوية الرابعة يعود إلى فترة البرونز المتوسط أي قرابة 1800 ق.م، وهذه الفترة شهدت بروز عدد من الممالك الأمورية القوية والمهمة في سورية ومنها «بابل، ماري، قطنا، ايبلا».



لكن الإعمار عاد فازدهر بعد ذلك. إذ يذكر الظاهري في كتابه (زبدة كشف الممالك) (١٤٨٦)، «أن في الغوطة وحدها ثلاثمئة قرية ونيّفاً في عهد دولة السلاطين (الماليك) الشراكسة. أصابها الخراب زمن العثمانيين».

لكن ابن طولون<sup>(٢٨)</sup> يذكر في مؤلفه (ضرب الحوطة على جميع الغوطة) في العهد العثماني، أن عدد قرى الغوطة والمرج كان قريباً من سبعين قرية. ليتحدث كرد علي في كتابه (غوطة دمشق) عام ١٩٤٩. عن وجود ١٦٨ قرية ومزرعة دائرة في الغوطة وحدها. ويُقدّر عددها في الحوض كلّ اليوم بـ ٣٦٦ مدينة وقرية ومزرعة منها نحو ١٢٠ مزرعة مهجورة.

وفي دراسة (ع. عبد السلام، ١٩٩٠)<sup>(٢٩)</sup> للتعرف على مراحل إعمار الحوض بدلالة التسميات الجغرافية<sup>(٣٠)</sup> للقرى وتوزعها الجغرافي، أظهرت الخريطة فيها ازدحام التسميات الأرامية- السريانية في غوطة دمشق وهوامشها الشمالية والجنوبية الغربية، وندرتها، بل وشبه انعدامها من كورة المرج. نذكر منها: دوما، وحرستا، وعربين (عربيل)، وجوبر، والقابون، وجرمانا، وسقيا، وزملكا، وجسرين، وزبيدين، وببيلا، وبيلا، وصحنايا، ودمشق نفسها وغيرها.

أما في المرج فلقد غابت التسميات الأرامية- السريانية كلياً لتحل محلها التسميات العربية الأحدث للقرى مثل: المنيحة (المليحة)، والمحمدية، ونولة، والدلبة، والغسولة، ومرج السلطان، والبلالية، ودير سلمان، والغريفة، والعبادة، والعتيبة، والبحارية، والجريا، والهجانة، والنشابة وغيرها.

وعلى الرغم من وجود بعض القرى الموسومة بأسماء عربية حديثة في بحر التسميات الأرامية في الغوطة، ووجود بعض القرى تحمل أسماء آرامية في خضم التسميات العربية في المرج، فإن توزيع التسميات يكشف انطباقاً شبه تاماً لخط الحد الفاصل بين مجموعتي التسميات، على الحد الفاصل بين كورتي الغوطة والمرج. ويبيّن حقيقة ارتباط الإعمار القديم لكورة الغوطة بالعهد الكنعاني - الآرامي. وارتباط الإعمار الأحدث بالعهد العربية المتأخرة وتركزه في كورة المرج.

ويلاحظ في هذا السياق أن تسميات قرى ومزارع كورة المرج تعكس ثلاثة أجيال من التجمعات الريفية، أقدمها تلك الحاملة لأسماء عربية من العهد الغساني والأموي وما بعده، تليها التجمعات الحاملة لتسميات مسبوقة بكلمة (حوش)، التي تدل على منشأة إقطاعية تعود للعهد العثماني والفرنسي. ومثلها تلك التي تسبق أسماءها كلمة (مزرعة). وهي تجمعات أحدث انتشرت في المرج الشمالي خاصة قبل نحو ٦.٥ عقود مضت.

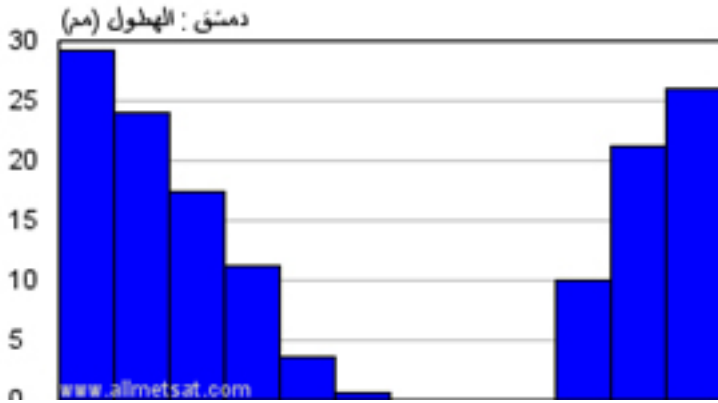
## ٢- تركيب السكان وتطورهم الديموغرافي:

كان سكان الحوض الأوائل يتألفون من مجموعات سبقت الآراميين والسريان، ومن العرب القدماء الذين جعلوا من دمشق عاصمة لهم. رقدتهم فيما بعد موجات قبلية متعددة جاءت من شبه الجزيرة العربية، آخرها موجة الغساسنة التي سبقت الموجة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

(28) ضرب الحوطة على جميع الغوطة: محمد بن طولون الدمشقي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 1946.

(29) جغرافية سورية الإقليمية: عادل عبدالسلام، 2003/ 1990. ص305.

(30) Ueber die topographischen Namen arabischen Ursprungs in Spanien und Portugal; Lautensach, H. 3.4.S.219-243..



معدل الهطولات بدمشق

وكانت موارد الحوض الطبيعية وغناه بالمياه دافعاً لسكان الأحياء القريبة والبعيدة، للتدفق على الحوض واستيطانه على مر العصور. وهو الدافع نفسه، الذي يجذب إليه المهاجرين الريفيين بأعداد كبيرة في الوقت الحاضر.

وعموماً فإن الكثيرين من سكان القرى الشرقية هم

ريفيون من أصول بدوية، ينتمون إلى قبائل عربية قديمة وحديثة، ما زال بعضها يتجول في الأحياء الشرقية والجنوبية الشرقية من الحوض على شكل أنصاف بدو، أخذوا بأطراف الاستقرار وبيدات التحضر. وبعضهم استقر فعلاً في مساكن ثابتة كما في بلدة حران العواميد وغيرها. إضافة إلى هجرة أفواج من سكان القرى والمناطق المجاورة من إقليم الجبال العالية، لا سيما من القلمون، إلى دمشق والمدن الأخرى في الحوض.

ولقد استمر تدفق أبناء الهجرات الحديثة من جميع الأقاليم السورية إلى المنطقة، ونشطت وكبرت أحجامها منذ استقلال سورية وحتى الوقت الحاضر، وشملت كلاً من المدن والريف. ولم تقتصر الهجرة والاستيطان على الوافدين إليه من منابت عربية سورية وغيرها، بل استقبل الحوض هجرات من أقوام غريبة جاءت من بلدان بعيدة منذ القدم، مثل الأتراك والأكراد والشركس والأرمن والألبان (الأرناؤوط) والبوشناق والكريتيين وغيرهم ممن أقام في دمشق في الدرجة الأولى أو في بعض قرى الحوض. وقد اندمج أغلب هؤلاء في المجتمع العربي.

ومن الهجرات المتأخرة إلى الحوض هجرة الجزائريين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٧، ثم تدفق قرابة ١٥٠.٠٠٠ راجئ فلسطيني على الحوض عام ١٩٤٨. ثم قرابة ١٠٠.٠٠٠ نازح جولاني استقروا في المدينة وفي مخيمات عديدة فيه. وعموماً كان الحوض والمدينة محطاً استيطان فئات بشرية مختلفة من بلاد الشام وبقية البلدان العربية والأجنبية. وما زال بغية كثيرين من سكان الريف السوري بصورة خاصة. أما عن حجم السكان فقد كان من أكثر مناطق العالم سكاناً في العهد الأموي، يسكن معظمهم في دمشق. وقد مرّ تاريخ المنطقة منذئذ بفترات ازدهار وانحطاط، بحسب العهود والقوى الحاكمة في بلاد الشام. وعلى الرغم من الروايات والأخبار المتواترة في كتب التراث عن سكان دمشق وحوضها، فإننا نفتقر إلى الأرقام الموثوقة لأعدادهم. وجل ما هو متوفّر ويُرَكَّن إليه إلى حد ما هو بعض المعطيات التقديرية لسكان من العهد العثماني، وتخمينات من زار المنطقة من الرحالة الأوروبيين، التي كانت تهتمّ بسكان المدينة بالدرجة الأولى. ومع ذلك يمكن تقدير عدد سكان الحوض نسبة إلى عدد سكان مدينة دمشق، التي قُدر عددهم عام ١٥٤٨ بنحو ٣٤٠٠٠ نسمة (ن. غويونج ١٩٧٨)<sup>(٣١)</sup>.

(٣١) الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق ٣٧ - ص ٣٨ سنة ١٢٥٥هـ: نجاة غويونج - مؤتمر بلاد الشام الثاني - دمشق - 1978.





أما عدد سكان الحوض حسب معطيات التعداد السكاني لسورية عام ١٩٤٧ فيقدر بنحو ٤٣٧,٠٠٠ - نسمة، منهم أكثر من ٣١٧,٠٠٠ نسمة في مدينة دمشق. ثم ارتفع عددهم سنة ١٩٦٠ لأكثر من ٧٠٠,٠٠٠ نسمة، منهم ٥٣٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في مدينة دمشق. وبلغ في تعداد عام ١٩٨١ نحو ١,٦٨٢,٥٠٠ نسمة، منهم أكثر من ١,١٠٠,٠٠٠ نسمة في مدينة دمشق، والباقي يقطن في نحو ٢٤٦ تجمعاً سكانياً.

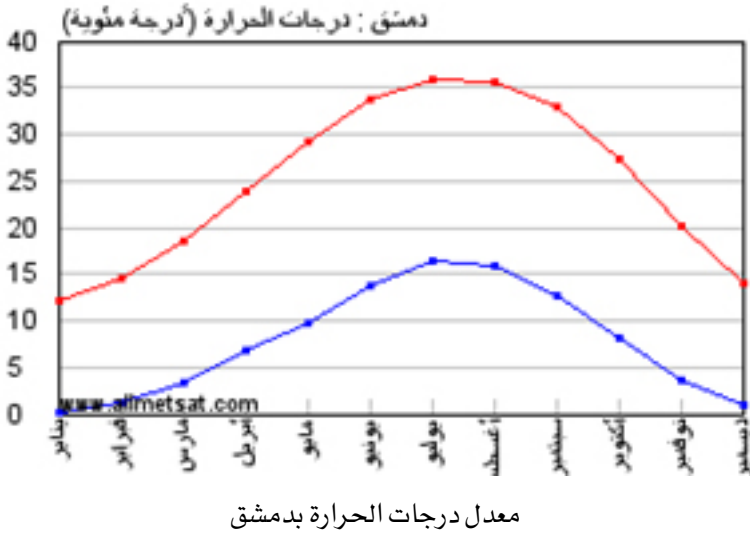
وقدّر المكتب المركزي للإحصاء عدد سكان منطقة حوض دمشق لعام ٢٠٠٣ بنحو ٣,٢٦٠,٠٠٠ نسمة، منهم في المدينة قرابة ١,٦٢٠,٠٠٠ نسمة، أي ما يعادل نصف السكان (٤٩,٧٪). وعلى الرغم من ذلك فإننا نرى أن الرقم الفعلي أعلى من ذلك بكثير، ولا نظن أنه أقل من (أربعة ملايين نسمة (٩٩). ومع ذلك فإن أرقام السكان وما يتبعها في دراستنا هي أرقام المكتب المركزي للإحصاء، نعتمدها انسجاماً مع اعتماد هذه الأرقام من قبل المؤسسات الرسمية والخاصة، ولعدم توفر سواها. وفي جميع الأحوال تبقى الكثافة السكانية في الحوض مرتفعة وتصل إلى (٩٠٥) أشخاص في الكيلومتر المربع الواحد، و(١١١ نسمة/كم<sup>٢</sup>) بحسب تقديراتنا. أما في دمشق فإن عدد السكان في أيام العمل الأسبوعي يرتفع كثيراً في النهار، بما يفد إليها من موظفين وعمال ومتسوقين وأصحاب مصالح مختلفة، وغيرهم ممن يعيش في المدن والقرى القريبة من دمشق. فترتفع الكثافات العددية في الأحياء التجارية إلى أكثر من ١٠,٠٠٠ نسمة/كم<sup>٢</sup>، تتخفف في الليل إلى بعض حراس الأسواق والمحلات التجارية فقط. وتشير التوقعات إلى أن عدد سكان مدينة دمشق وحدها سيصبح بحلول عام ٢٠٢٥ أكثر من ٥,٦ ملايين نسمة، وأما ريفها فسيبلغ عدد سكانه ٤,٦ ملايين نسمة. أي أن سكان الحوض سيتجاوز ١٠ ملايين، أو ما يعادل ٤٠٪ من سكان سورية، الأمر الذي سيُسبب أزمات ومشكلات لا حصر لها.

وبناءً على ما تقدم فإن هذه المعطيات الديموغرافية تعكس سوء توزع السكان في سورية، وازدحامهم غير الطبيعي في بقعة محدودة المساحة مثل حوض دمشق، الذي يشغل أقل من ٢٪ من مساحة البلاد. ولا يمكن تفسير هذا الازدحام والزيادة السكانية في الحوض بالنمو الطبيعي للسكان المحليين (التّناء) وحده، بل به وبالهجرة التي لا تنقطع إليه، من كل من ريف سورية وبلداته المختلفة ومن الخارج.

### خامساً \_ دمشق، العاصمة الواحة:

مدينة دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية، ولها في التاريخ أكثر من عشرة أسماء، منها جلق وجيرون وذات العماد والفيحاء وغيرها. وفي تسميتها بدمشق آراء وتخرجات يهمنها أنها تسمية آرامية الأصل. لكن أكثر أسمائها تداولاً من قبل أبناء العربية هو (الشام)، وكانت تُعرف في العهد العثماني ب(شام شريف) من إضافة (مُقدّس) للاسم.

ودمشق عبارة عن تجمع سكاني حضري كبير، ينمو باتجاه تحوُّله إلى مدينة عملاقة، تقع على ارتفاع متوسط قدره ٧٠٠-٦٩٠ م فوق سطح البحر، عند أقدام وخاصرة جبل قاسيون الذي يُطلُّ عليها من ارتفاع قدره ١١٥٠ م، وجبل المزة. عنتر، الواقعين على الحافة الغربية لمنطقة حوض دمشق، حيث قامت على شريط التقاء الجبال بفيافي البادية السورية.



وهي مدينة قديمة ذات تاريخ غني وحافل بالأحداث، إذ تعود نشأتها المبكرة إلى الألف الثالث قبل الميلاد، في مكان ظهرت فيه بدايات التجمع السكاني الأول، الذي نما وتطور إلى النواة الأولى لدمشق، بحدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد على ربوة (تل السماكة) بين مئذنة الشحم وحي الخراب، تقع على الجانب الأيمن (الجنوبي) من نهر بردى، وترتفع 5-6 م فوق المستوى العام للمنطقة. ومن ثم أصبحت النواة مدينة - عاصمة لدول وممالك مختلفة حكمت هذا الجزء من العالم في شتى العهود،

ولذلك تُعدُّ دمشق أقدم مدينة - عاصمة، استمرَّ إعمارها بدون انقطاع، منذ ورد ذكرها في الوثائق المصرية العائدة للقرن الخامس عشر ق.م. وكانت حاضرة أهم الممالك الآرامية في القرنين العاشر والتاسع ق.م. لكن أهمية آرام دمشق تراجعت إلى عاصمة دويلة صغيرة، إثر غزوها من قبل الآشوريين عام 732 ق.م، والكلدانيين علم 604 ق.م. وبعد ذلك خضعت للحكم الفارسي عام 530 ق.م. مع بقاء ملوك آرام دمشق حكماً فيها حتى داهمها الاحتلال اليوناني عام 333 ق.م. ولما كان الاستعمار اليوناني استيطاني الطابع، أنشأ اليونانيون أحياء لهم في مستعمرة أُقيمت شرق المدينة الآرامية القديمة. وكان شكل مخطط المستعمرة اليونانية وشوارعها منظمًا على النمط الهندسي اليوناني - الهليني، وهو الشطرنجي الطراز. ومع تراجع الدور اليوناني - الهليني بعد موت الإسكندر، وانقسام إمبراطوريته، دخلت دمشق في حوزة الدولة السلوقية، إلى أن احتلها الأنباط عام 85 ق.م. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ غزا الرومان سورية، واحتلوا دمشق عام 64 ق.م.<sup>(32)</sup> وقد جعل الرومان دمشق قاعدة عسكرية، أحاطوها بسور أقوى من السور الآرامي، طوله 1500 م وعرضه 750 م، فيه تسعة أبواب. ولم يبق اليوم من السور سوى الجزء الشرقي والجنوبي، ومن الأبواب الرومانية سوى باب شرقي. أما بقية الأبواب فقد أُعيد بناؤها وتجديدها في عهود لاحقة. كما اشتق الرومان من بردى قناتي بانياس وتورا. إضافة إلى أبنية ومعالم عمرانية عسكرية ودينية اندثر معظمها. وقد أسهمت دمشق في بناء الحضارة الرومانية وسياسة روما. وظلت دمشق منذ أواخر القرن الرابع الميلادي وإبان الصراع البيزنطي - الفارسي حاضرة سورية، مع بروز الغساسنة حكماً للجنوب السوري وحوض دمشق تحت الحماية البيزنطية، إلى أن فتح العرب المسلمون دمشق عام 635 م.

(32) Esquisse d' une histoire de la ville de Damas. Rev. Des Etudes Islam; Sauvaget, J. 8. p. 421-480.



وفي العهد الأموي (٦٦١-٧٥٠ م) أصبحت دمشق عاصمة أكبر دولة مترامية الأطراف، وأهم مركز إشعاع حضاري وسياسي في العالم. ورافق ذلك توسع عمراني تجاوز أسوار المدينة القديمة، وتشيد منشآت عمرانية واقتصادية ودينية يأتي بناء الجامع الأموي الكبير في مقدمتها. لكن المدينة وعمرانها تعرضا لتدمير وتراجع في بداية العهد العباسي (٧٥٠ م). وفقدت دمشق مكانتها كعاصمة للعالم الإسلامي، بانتقال مركز الخلافة إلى مدينة بغداد. ثم تعاقب عليها بعد ذلك عشرات الحكام والدول، تعرضت في أثنائها للهدم والتخريب وتدني أعداد السكان والانحطاط حيناً، وللبناء والازدهار وازدياد أعداد السكان حيناً آخر. وتذكر المصادر التراثية أن عدد سكان دمشق في العهد الفاطمي (٩٧٣ - ١٠٧٥ م) لم يتجاوز ٥٠٠٠ نسمة عام ١٠٧٥، مع الأخذ في الحسبان تعرض المدينة لزلازال عام ٩٩١ الذي دمر ألف بيت فيها، ثم زلزال عام ١٠٢٩ م، الذي قضى على نصف المدينة وسكانها.

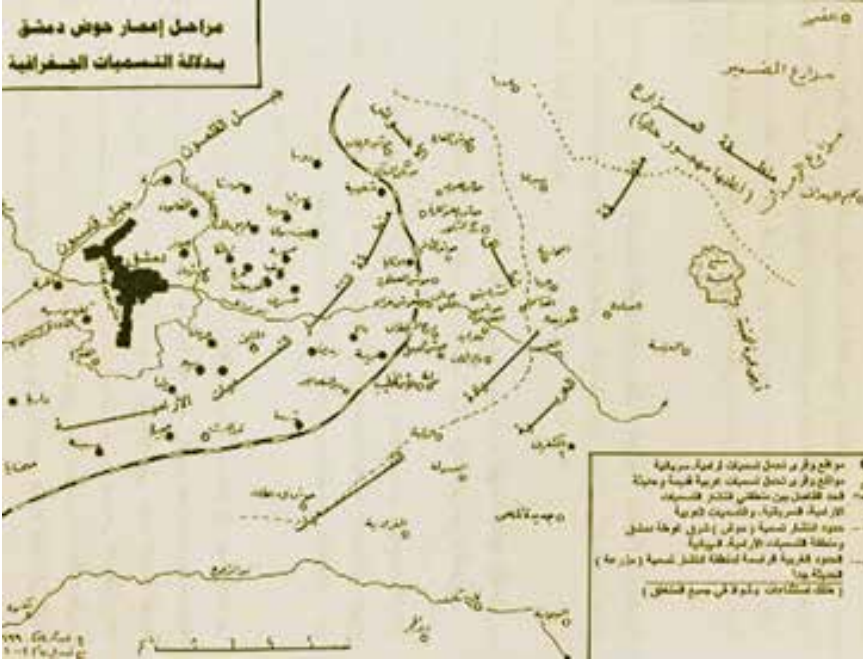
وقد عادت دمشق فازدهرت وازداد عدد سكانها في العهد السلجوقي، وامتد تأثيرها إلى الفرات شرقاً، وطبرية جنوباً وحمص شمالاً. وقام الأمير أئسز السلجوقي بإعادة بناء قلعة دمشق على أنقاض البناء القديم الذي يرجعه الاختصاصيون إلى العهد الروماني، وأعيد ترميم قسم كبير من القلعة حديثاً.

ثم مرت في بداية عهد الأيوبيين عام ١١٥٤ بفترة من الفوضى والاضطراب، تلتها مرحلة ازدهار حين أصبحت عاصمة للدولة الأيوبية، فتوسع عمرانها خارج السور باتجاه جبل قاسيون. لكن الغزو المغولي داهم دمشق للمرة الأولى عام ١٢٦٠، وللمرة الثانية عام ١٤٠٠ م حين دمرها تيمورلنك وخلفها خاوية على عروشها. علماً أنها كانت قطعت شوطاً كبيراً في النمو والتقدم بين الغزوين، في عهد دولتي السلاطين الأتراك والشراكسة، الذين أعادوا بناءها وإعمارها بأبرز المعالم العمرانية الباقية إلى اليوم. وفي عام ١٥١٦ سقطت سورية ودمشق بيد العثمانيين الذين توسع العمران في عهدهم خارج السور. وتراجع دورها إلى مدينة تابعة لإسطنبول عاصمتهم. أعقبهم الاستعمار الفرنسي من عام ١٩٢٠ إلى استقلال سورية وخروج آخر جندي فرنسي منها عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك التاريخ ودمشق عاصمة لسورية المستقلة<sup>(٣٣)</sup>.

لم يبق عمران دمشق ومخططها على حال واحدة عبر هذا التاريخ الطويل، الذي فرضت فيه كل سلطة حاكمة ما يناسبها من جوانب عمرانية ومخططات متعاقبة، حتى وصل عمران المدينة إلى ما هو عليه اليوم. آخرها المخطط التنظيمي للمهندس الفرنسي دي جوفنيل، وتبعه مخطط ميشيل إيكوشار<sup>(٣٤)</sup>، الذي تمت المصادقة عليه سنة ١٩٦٨. ثم المخطط السوري لعام ٢٠٠١ ورديفه لعام ٢٠١٥. وبغض النظر عن هدف إيكوشار، الهادف إلى تخريب موروث عمران المدينة، فإن المخططات

(33) Damaskus-Aleppo- Beirut. Ein geographische Vergleich dreier naheöstliche Staedte im Spiegel ihrer sozial und wirtschaftliche tonangebenden Schichten; Wirth, E. Erde 96 (1966), S.96-137-202.

(34) ميشيل إيكوشار 1905-1985: مهندس معماري عمل بتخطيط المدن، دُعي لتنظيم مخطط مدينة دمشق في المرحلة بين عامي 1963-1968. نقل عنه قوله لمهندسة فرنسية انتقدت مخططة: لا تدافعي عن دمشق، هذه مدينة قذرة! وأنه يقتلع الأحياء العربية «لأجل النظافة والجمال!». ناديا خوست، 2006.



مراحل إعمار حوض دمشق

المذكورة راعت التوسع الأساسي لدمشق على محور شمالي غربي (الصالحية)، ومحور درب الحج القديم (الميدان). وكان عدم المساس بالمدينة القديمة داخل السور من أولوياتها، لا سيما وأنها صنفت من قبل اليونسكو واحدة من مواقع التراث العالمي عام ١٩٧٩، إضافة إلى حساب احتياجات دمشق المستقبلية استناداً إلى عدد السكان وكثافتهم، وتوقع وصول عدد سكان العاصمة إلى حوالي ٥-٧ ملايين نسمة في العام ٢٠٢٠. على مساحة ٤٨٠٠ هكتار للسكن، كان أهم مقومات المخططات التنظيمية.

تتألف دمشق اليوم من أربعة أقسام تتابعت نشأتها زمنياً هي: (النواة)، ثم (المدينة الوسيطة)، (المدينة الحديثة)، و(أحياء البؤس والمخالفات). فالنواة هي القلب، وهي المدينة القديمة المحددة بالسور، مع بعض الأحياء القديمة التي نشأت خارجه، وقامت على أرباضها، وتشكل قطب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنشاط التجاري لبلاد الشام... وتتشط في قطاعين وظيفيين، هما القطاع الشمالي الغربي، ويضم أغلب المباني والأبواب الأثرية التاريخية، وله وظيفة تجارية، وإلى درجة ما وظيفة صناعية تقليدية، ووظيفة سكنية محدودة. ثم بقية أنحاء النواة وتغلب عليها الوظيفة السكنية، مع وجود بعض أشكال النشاط التجاري والصناعي.

ولقد تأثر مخطط النواة الأصلي كثيراً بأحداث القرون الوسطى، وانقطاع حبل الأمن، فظهرت فيها شبكة من الحارات والأزقة المتعرجة والضيقة، التي ينتهي بعضها بحارة مسدودة. ومن أهم أحياء ضواحي دمشق القديمة حي العقيبة، والشاغور، وقصر الحجاج. ثم أحياء السويقة وسوق صاروجا والصالحية التي نشأت في العصر (الملوكي). والذي يعود إلى ذلك العصر معظم ما تحويه المدينة القديمة وضواحيها من المعالم التاريخية والنسيج العمراني والمعماري الموجود اليوم. والغالب على مادة البناء في الدور السكنية الطين والخشب، وهي مؤلفة من طبقة أو طبقتين، حسب مخطط البيت الدمشقي المعروف، مع تباين في الوضع بحسب الحالة المادية لصاحب البيت. وقد صدر عام ١٩٨٨ قرار يقضي بإحداث لجنة حماية دمشق داخل السور، باعتبارها ثروة قومية

وانسانية حضارية.

أما المدينة الوسيطة، وتُعرف في بعض المراجع بالمدينة العثمانية لارتباطها بالعهد العثماني، فقد نشأت نتيجة توسع الأحياء السابقة خارج السور، واتصالها بالضواحي في الشمال الغربي والغرب في حي القنوات، وفي الجنوب الغربي بحي السويقة الذي اتصل بأحياء الميدان، التي قامت على جانبي درب الحج باتجاه الجنوب. كذلك توسعت منطقة الصالحية فالتحمت مع أحياء سفوح جبل قاسيون (ركن الدين، والشركسية، والمهاجرين).

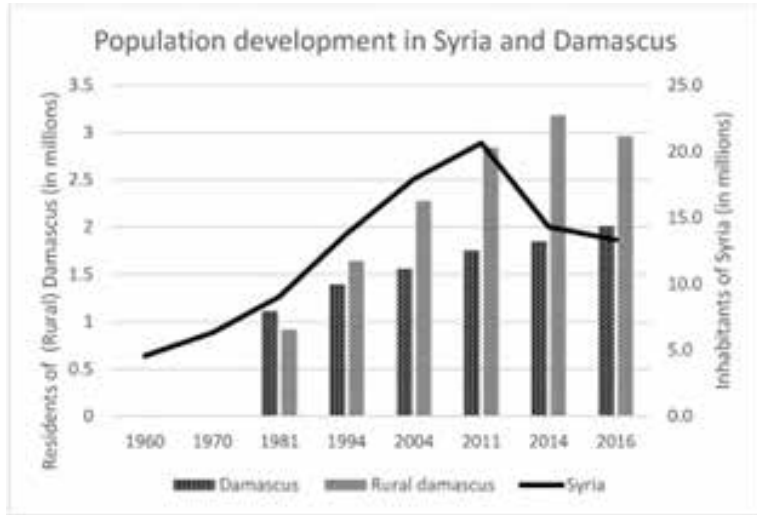
وهكذا نمت مدينة دمشق على امتداد محورين أساسيين؛ الأول شمالي - جنوبي، والثاني شمالي شرقي - جنوبي غربي حتى نهاية الحكم العثماني في سورية. وتتصف أحياء المدينة الوسيطة وشوارعها بكونها أكثر انتظاماً واتساعاً واستقامة، ومساكنها مبنية في كثير من أجزائها بالحجر، لا سيما في الأحياء الجديدة، مع غلبة واضحة للمسكن الطينية. الخشبية، ذات الفسحة الداخلية من نموذج البيت الدمشقي التقليدي.

أمّا القسم الحديث من مدينة دمشق فقد بدأت معالمه بالظهور منذ مطلع عشرينات القرن الماضي، بتوسع الأحياء السابقة باتجاه المساحات الخلاء بين الأذرع العمرانية الخارجة من جسم المدينة. فنشأت أحياء رابطة في الجسر الأبيض وعرنوس والشهداء، كما زحفت الأحياء الشرقية باتجاه مز القصب، والقصاع، وغيرها من أحياء ومحاور، قامت على أساس مخططات تنظيمية وضعت عام ١٩٢٩، اتصفت بشوارع وجادات عريضة ومستقيمة قامت على جوانبها منازل مبنية بالحجارة، وبعضها بالطين والخشب والحجر، مع تزايد استخدام الإسمنت المسلح والإسمنت في البناء منذ أواخر الحرب العالمية الثانية، بالتزامن مع ظهور الأحياء العصرية في منطقة أبو رمانة، والمزرعة، وشمال شارع بغداد في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

كما بدأ العمران الأحدث يزحف باتجاه المالكي والعدوي وأحياء أخرى جديدة قامت مكان بساتين وحدائق سابقة، كما ابتلعت أراضي قرى قريبة من المدينة هي القابون، وبرزة، وجوبر، وكفر سوسة، والقدم، والمزة وغيرها. ولقد اعتمد بنيان هذه الأحياء وامتداداتها على الهندسة المعمارية الحديثة، والمخططات التنظيمية العصرية. كما أصبحت مادتا الإسمنت والحديد أساس كل المساكن والمنشآت والعمارات والأبنية المختلفة، التي يغلب عليها تعدد طبقاتها، التي تجاوزت الطبقات العشر، والعشرين طبقة في العمارات البرجية.

وقد تجاوزت مساحة عمران دمشق الحديثة كل التوقعات السابقة، فبعد ما كانت ٦٧٢ هكتاراً عام ١٩٣٥، أصبحت ٤٨٠٠ هكتار، تشغلها المساكن المنتشرة على أرض دمشق المحافظة. كما ارتفع عدد أحيائها الداخلة في إطار المخطط التنظيمي إلى ٦٢ حياً حتى عام ٢٠١٠. والأرقام مرشحة للزيادة في المستقبل، مع التزايد السكاني والعمراني المستمر لدمشق.

أمّا القسم الرابع المؤلف من أحياء البؤس والمخالفات، فيحتل ١٢ر٤٪ منها مساحة الغوطة، وهو عبارة عن تكديس مساكن بأئسة مبنية من اللبن الإسمنتي (بلوك)، مسقوفة بألواح التوتياء أو الصفيح في البداية، تصبح من الإسمنت المسلح مع تحسن الأوضاع المادية لأصحابها. أغلبها مؤلف



شكل يبين تطور أعداد السكان في سورية ودمشق بين ١٩٦٠ و٢٠١٦ (من النت). لاحظ تدهور عدد سكان سورية بعد ٢٠١١ وارتفاع هجرة الريفيين إلى دمشق

من غرفة واحدة ومن طبقة واحدة إلا ما ندر. وهي مساكن عديمة التنظيم والتخطيط، بُنيت على عجل لتفادي هدمها قُبيل اكتمالها من قبل السلطات المختصة لمخالفاتها. وتفتقر إلى شتى أشكال الخدمات الأساسية، وحرارتها ترابية ضيقة موحلة في الشتاء. وسكان هذه الأحياء هم من الفقراء الوافدين إلى دمشق من جميع أنحاء أرياف سورية، إضافة إلى النازحين واللاجئين والأغراب، يعيشون في أوضاع اجتماعية واقتصادية وصحية ونفسية سيئة في أحياء: الطبالة والدويلعة والكباس والدخانية والزفتية وجبل المزة (٨٦) وعش الورور.

فدمشق مدينة كبيرة تتشابك فيها شتى أنواع الوظائف والأعمال والقطاعات الحيوية في عاصمة دولة ذات إرث حضاري وإنساني وتاريخ طويل وعريق. فهي مدينة واحة نهريّة انتقالية بين البوادي العربية، وعالم الجبال والبحر المتوسط. وهي عقدة مواصلات مهمة في الاتجاهين، تنتشعب منها وتلتقي فيها طرق التجارة والمواصلات التي تربطها بالعالم، لا سيما بلاد الشام وما وراءها في آسيا. لذا كانت وظيفتها التجارية من أهم قطاعات الاقتصاد لأعداد كبيرة من السكان التّاء (الأصليين)، بل ومن الوافدين.

وقد تطورت هذه الوظيفة التجارية ونمت باتجاه تأقلم التاجر الدمشقي مع التطورات الحديثة في أساليب العمل التجاري المعاصر ومع وسائل النقل. ومن مظاهر الأهمية الكبرى لهذا القطاع الاقتصادي في دمشق غناها بالأسواق المسقوفة والمتشابكة في أحياء المدينة القديمة والوسيطّة المختصة بسلع معينة. خاصة حول الجامع الأموي وغربه، وفي محور سوق الطويل (مدحت باشا)، وسوق الحميدية الذي أعيد ترميمه وتجميله عام ٢٠٠٢. ثم في محور منطقة السنجقدار وغيرها خارج السور.

كذلك ظهرت أسواق محلية في الأحياء الجديدة في القصاع، وباب توما، والتجارة، والخطيب، والمزرعة، والجسر، وابن النفيس، وشارع الثورة، والحمراء، والمزة وغيرها من المناطق. إضافة إلى أسواق شبه شعبية ثابتة أو غير ثابتة قامت في الأحياء الهامشية من المدينة وعلى جوانب الطرق المحورية في أحياء المخالفات أو قربها.

ولا تقل الوظيفة الصناعية في دمشق أهمية عن الوظيفة التجارية. فهي موطن الكثير من الصناعات التقليدية والحرفية العريقة المشهورة منذ القدم. وهي اليوم القطب الصناعي الأول في

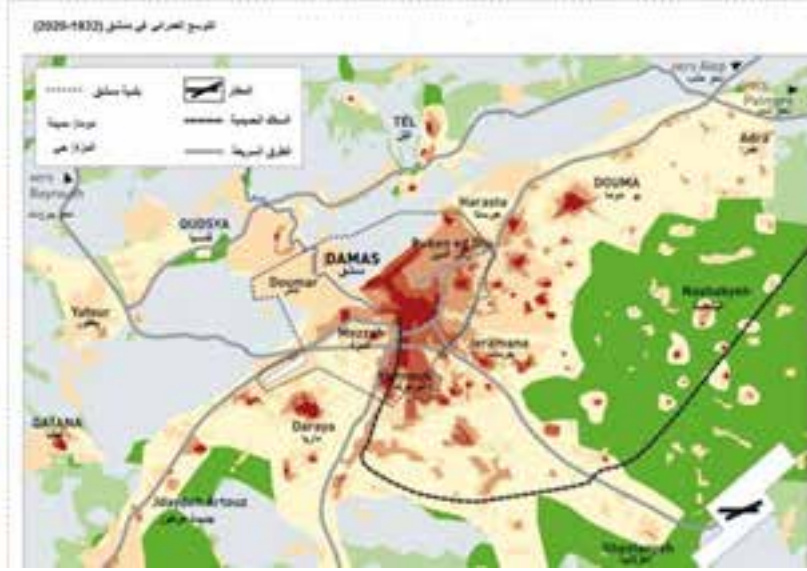
سورية بما تحويه من آلاف المشاغل والحيازات الصناعية التي تزيد على قرابة ١٥,٠٠٠ حيازة خاصة، وعشرات المعامل والمصانع الكبيرة والشركات والمؤسسات الصناعية الحديثة التابعة للقطاعين العام والمشترك، المنتشرة حول المدينة على امتداد المحاور: الشرقية، والشمالية الشرقية، والجنوبية... وما بينها. وأهمها معامل الصناعات الغذائية والنسجية، والهندسية، والكيميائية وغيرها. كذلك اشتهرت دمشق في التاريخ على أنها واحدة من أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي. ظهر فيها الكثير من أعلام وشخصيات علمية. وهي اليوم أكبر المراكز العلمية والثقافية الحديثة أيضاً. إذ تحوي أكبر جامعات سورية، وعشرات المعاهد ومراكز البحوث والمراكز الثقافية والمكتبات والمدارس بمراحلها المختلفة، والمسارح والأندية والمتاحف، ودور الطباعة والنشر، وغيرها من مؤسسات ثقافية وعلمية وإعلامية وفكرية، تجعل من دمشق أهم منبع روحي وفكري في سورية وبلاد الشام. ومما يزيد في أهميتها دورها الإداري والسياسي والقومي والفكري كعاصمة لسورية، وغناها بالأوابد والمعالم التاريخية، وآثار الحضارات المتراكمة فيها على مر عشرات القرون، وكل ذلك أكسبها وظيفه سياحية متنامية يوماً بعد يوم، حيث تشد إليها أفواجاً متزايدة من السياح من جميع أنحاء العالم.

كل ما تقدم وغيره من وظائف ونشاطات، وعوامل ازدهار منحت دمشق شخصيتها المميزة، جلب لها الخير والنمو والثراء. لكنها وفي الوقت نفسه بدأت مع الزمن تدفع ضريبة النمو والتطور، باستفحال أخطار تلوث الهواء والمياه والتربة فيها. إضافة إلى تفاقم أزمات المياه والسكن والتموين والمرور والمواصلات، وازدياد مستوى التلوث بالضجيج ازدياداً أخذ ينعكس على السكان وسلوكهم سلباً. أمّا مياه الشرب في دمشق فقد كانت تعتمد ينبوع الفيحة كما تقدم، لكن تزايد أعداد السكان المتصاعد فيها دعا إلى دعمها بمياه آبار تزيد على ١٠٢ بئر حُفرت فيها وحولها. ومع ذلك تبقى الشام (دمشق) قبلة أبناء بلاد الشام، ومقصد أبناء العالمين العربي والإسلامي، لما تتمتع به من شخصية وسمعة طيبة، إضافة إلى قدسيتها الدينية عند المسلمين فهي (شام شريف مقدس).

### سادساً \_ مدن وقرى حوض دمشق:

وصل عدد القرى في منطقة حوض دمشق، مع بداية القرن الحادي والعشرين، إلى ٨٨ قرية دون المزارع، التي ضمت التعدادات السكانية أعداد سكانها إلى القرى التابعة لها. وتبين تقديرات عام ٢٠٠٣ أن عدد القرى التي يقل سكانها عن ٥٠٠ نسمة متدن جداً، لا يزيد على ٥ قرى. وعدد التي يراوح عدد سكانها بين ٥٠٠-١٠٠٠ نسمة هو نحو ١١ قرية، والتي يراوح عدد سكانها بين ١٠٠٠-٢٠٠٠ نسمة هو نحو ١٨ قرية. أما القرى الكبيرة التي تراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠-٥٠٠٠ نسمة فيصل عددها إلى نحو ٢٤ قرية، والتي يراوح عدد سكانها بين ٥٠٠٠-١٠,٠٠٠ نسمة فهو بحدود ٢٠ قرية كبيرة وبلدة، والتي يراوح عدد سكانها بين ١٠,٠٠٠-١٥,٠٠٠ نسمة فلا يزيد على تسع بلدات وقصبات (إذا أخذنا مبدءاً الـ ٢٠,٠٠٠ نسمة أساساً للمدينة).

وهذا يعني أن القرى الكبيرة تشكل أكثر من ٦٠٪ (مقابل ٢٢٪ لعام ١٩٨١) من مجموع قرى الحوض.



مخطط لنمو مدينة دمشق ومراحلها الأربع (من ع. عبدالسلام)، و مخطط التوسع العمراني (من <https://www.aljmhuriya.com/>) ١٩٣٧

والقرى الصغيرة أقل من ٦٪ فقط (مقابل ٤٠٪ لعام ١٩٨١). ومع تزايد أعداد السكان تم تصنيف الكثير من القرى الكبيرة مدناً، يزيد عدد سكانها على ٥٠,٠٠٠ نسمة. وقد وصل عددها إلى ١٤ مدينة بحسب تعداد السكان لعام ١٩٨١. أما اليوم (٢٠١٠) فقد وصل الرقم إلى قرابة ٣٠ تجمعاً سكانياً حضرياً أو مدينة، يزيد عدد سكان كل واحدة منها على ٢٠,٠٠٠ نسمة أهمها مدن:

دوما، السيدة زينب، جرمانا،

داريا، الحجر الأسود، حرستا البصل، سبينة، عربين، المعضية، ببيلا، الكسوة، زمكا، الضمير، عين ترما، سقبا، يلبا، عدرا، أشرفية صحنايا... مما يرفع نسبة حضري الحوض مع دمشق إلى ٥٧,٢٪، ونسبة الريفيين إلى ٤٢,٨٪. ولما كان عدد كبير من سكان هذه المدن يعمل في الزراعة والمهن المرتبطة بها، تصبح نسبة الريفيين أعلى من نسبة الحضريين. وبالفعل فإن نسبة عالية من سكان المدن ما زالت تعمل في القطاع الاقتصادي الأول، وفي الزراعة بصورة خاصة، لدرجة يصح معها تسمية أغلب هذه المدن بـ(المدن الزراعية).

كذلك تحولت مجموعة من القرى السابقة إلى مدن، ليس نتيجة ازدياد عدد سكانها فحسب، بل بسبب استقرار وافدين ومهاجرين يعيشون في أحياء بؤس فقيرة قامت حولها، من دون انتقال إلى حالة تحضر فعلي. أو أنها تحولت إلى تجمعات سكن لعاملين في دمشق أو غيرها. وهناك عدد من المدن والقرى لم يكن لها وجود قبل خمسة عقود، كانت بساكنين وحقول زراعية خصبة أقام فيها الوافدون مساكنهم مثل مخيم جرمانا والحجر الأسود.

وقد زحف العمران على امتداد المحاور الشمالية الشرقية والشرقية والجنوبية الغربية مبتلعاً المساحات الخضراء حول دمشق، وعلى امتداد مختلف المحاور في التجمعات السكانية الأخرى. مع الإشارة إلى وجود عدد يزيد على ١٠٠ تجمع من المهجورات الخالية من السكان في أنحاء الحوض، لا سيما الشرقية والشمالية الشرقية منه. وقد تسببت أسنة الزحف العمراني الخارجة من قرى الغوطة والمرج وتجمعاتها السكانية نفسها في القضاء على المساحات الخضراء للغوطة بل والمرج. وقد اخترق العمران في كثير من الأماكن الطوق الأخضر، فالتحم عمران التجمعات السكانية الغوطية بعمران أحياء مدينة دمشق الهامشية، وهذا أجبر المخططين على إلحاقها بها، وعدّها حياً من أحيائها. تتألف مخططات مدن الحوض، خارج مدينة دمشق، من كتلة قديمة من المساكن والمؤسسات



الريفية التي كانت تشكل القرية الأصلية، وتعد بقاياها الحالية نواة التجمع. يحيط بها، أو يلتحم بها ما يمكن تسميته بالمدينة الجديدة (زمنياً)، ثم أحياء البؤس والمخالفات الأكثر جدّة. وتتصف النواة القديمة، وبالتحديد ما نجا من التجديد، من النماذج التقليدية للمسكن في حوض دمشق، المبني أصلاً من المواد الأولية المتوفرة محلياً من التراب والخشب. والمعروف بالمسكن الطيني - الخشبي ذي السقف المستوي المائل قليلاً. وهو مؤلف من طبقة واحدة عادة، لكن المساكن المبنية من طبقتين ليست نادرة أيضاً. وهي ذات فسحة داخلية أو أمامية، ويمكن تصنيفها في زمرة البيت العربي - الريفي الآخذ بالاندثار. ومساكن النواة مكتظة وحرارتها وطرفاتها متعرجة وضيقة عادة، تحوي سوقاً قديمة أو أكثر.

أما القسم الجديد - الحديث فيحيط بالنواة أو ينبثق منها، وطرقاته وشوارعه مستقيمة وواسعة، تقوم على جوانبها المساكن والمحلات التجارية والمخازن والحوانيت في أسواق تجارية حديثة. ومساكنه مبنية بالإسمنت والحديد، وبالحجر أيضاً، وتتألف في معظمها من عدة طبقات. أما مساكن أحياء البؤس فشبيهة بمثيلاتها حول المدن.

دوما: (٣٥) ثانية مدن منطقة حوض دمشق سكاناً وحجماً وأهمية بعد مدينة دمشق، التي تدور في فلكها. تقع في أرض منبسطة في الغوطة الشرقية؛ إلى الشمال الشرقي من دمشق مسافة ١٥ كم، بعيدة عن أقدم جبال القلمون. وهي مدينة قديمة تعود إلى العهد الآرامي. كما أن حقوقها المائية في قناة تورا آرامية العمر، وانتشار قنوات الري بالمياه الجوفية المعروفة بالقنوات الرومانية (الفجارات) وغيرها من معالم قديمة تؤكد قدم إعمار موقع دوما واستمراره.

ما زالت دوما، على الرغم من تصنيفها في قائمة المدن السورية، تعتمد اعتماداً كبيراً على القطاع الزراعي والفعالية الزراعية للسكان الأصليين، يليه اهتمام نسبة مهمة من السكان بالتجارة المرتكزة على التعامل بالمنتجات الزراعية - الحيوانية، والسلع الاستهلاكية المصنعة وشبه المصنعة. أما القطاع الصناعي في دوما فمتواضع. وقد أصبح الكثيرون من الدومانيين بل ومن أبناء وبنات المدن والقرى الأخرى، من ذوي الدخل المزدوج في اليوم، يعملهم في الوظائف والمعامل والخدمات وغيرها قبل الظهر، وفي الزراعة بعد الظهر وأيام العطل.

### سابعاً - النشاط الاقتصادي في حوض دمشق والمدينة:

حوض دمشق قطب اقتصادي مهم جداً في سورية، اكتسب أهميته من دور الإنسان في الاستفادة البارعة من الموارد الطبيعية المحدودة، التي تقدم ذكرها أعلاه. ولما كان الحوض يفتقر إلى الثروات الباطنية والطبيعية الأخرى، استأثرت الزراعة، ومنذ قيام التجمعات السكانية الثابتة، بالمركز الأول في قائمة النشاطات الاقتصادية في الحوض. نمت بعدها التجارة، وتطورت الصناعة بدرجات متفاوتة (٣٦).

#### ١- النشاط الزراعي:

أصل الزراعة في حوض دمشق هو الزراعة المروية، لأن متوسطات أمطاره السنوية تراوح بين

(٣٥) الندوة العلمية لمدينة دوما، دوما، 1987.

(٣٦) غوطة دمشق: صفوح خير.



توسع مدينة دمشق حتى آخر القرن العشرين

٢١٢ و ١٥٠ ملم، فلا تسمح بممارسة أي شكل من أشكال الزراعة البعلية، التي قد تمارس بشكل محدود، في بعض سنوات الخير. وتعد التربة ومياه الري من أبرز مقومات الزراعة التي أتقن الإنسان استغلالها بدقة وعناية كبيرة في الحوض، وأخضعها لأنظمة مذهشة من شبكات الري وتقيسم الأراضي، منذ عرف إنسان الحوض الزراعة، وحتى القرن الحادي العشرين.

وما زالت الزراعة تقوم في المنطقة على مياه الأنهار والينابيع، كما كانت في السابق، لكن التطورات الحديثة، والاتجاه نحو زيادة الإنتاج، أدى إلى عجز المياه السطحية، مع تدهور نوعيتها وتلوثها نسبياً، عن تلبية الطلب المتزايد عليها. فلجأ المزارعون إلى رفع المياه الجوفية بالمضخات التي تجاوز عددها في الحوض ٦٠,٠٠٠ بئر. مضخة لعام

٢٠١٠، بعدما كان العدد بحدود ١٧,٠٠٠ بئر. مضخة عام ١٩٨٩. وترتفع كثافة الآبار في كورة المرج، وتراجع تدريجياً باتجاه الغرب، حيث ما زال الري التقليدي القائم على مبدأ العدانات، وأسس العرف في توزيع حصص المياه معمولاً به، إلى جانب الري بمياه الآبار.

إن النتيجة الطبيعية لهذه التطورات وما يشوبها من تجاوزات واستنزاف جائر للمياه الجوفية، لا سيما في أنحاء الحوض الشرقية والشمالية الشرقية والهوامش، هو تناقص كمياتها وتدني نوعيتها وارتفاع ملوحتها، إضافة إلى انخفاض مستوى المياه الجوفية انخفاضاً خطيراً، وصل إلى أعماق تراوح بين ٢٠٠ - ٤٠٠ م، في مناطق كانت تظهر فيها المياه الجوفية على السطح في الشتاء ولا يزيد عمقها على بضعة أمتار في الصيف. أما المياه غير التقليدية المنتجة من محطة معالجة مياه الصرف الصحي في عدرا، فلا تغطي إلا نسبة ضئيلة من الطلب على مياه الري. إذ تبلغ طاقتها المتوسطة نحو ٩٧٠,٠٠٠ م<sup>٣</sup> يومياً. وهي مصممة لري مساحة ١٨,٠٠٠ هكتار.

ومن الأمور التي أثرت في التنمية الزراعية انتشار الملكية الزراعية الخاصة الصغيرة، بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٨. أما أساليب الاستثمار فأعمها هو الاستثمار المباشر للأرض من قبل صاحبها وأسرته، كما في بساتين الغوطة وغطوات الأشجار المثمرة، وأقلها هو الاستثمار غير المباشر خاصة في كورة المرج. ولقد انتشر استعمال الأدوات والآلات الحديثة والأسمدة والمبيدات الحشرية في الحوض، لكن الأدوات القديمة ما زالت قيد الاستعمال.



وعموماً تحولت أنماط الزراعة، في أغلب أنحاء الحوض، من نموذج زراعة الاكتفاء الذاتي، إلى نموذج الزراعة التجارية. النقدية، الذي كان محصوراً بالغوطة سابقاً. كذلك أخذ التفكير المادي والريح يسيطران على عقلية المزارعين، فتوجّه الكثير منهم إلى العمل الإضافي بأجر أو مرتب شهري في دمشق والمعامل وغيرها، والعمل في الزراعة بعد الظهر. وقد انعكس هذا النمط من كسب الرزق على العلاقات الاجتماعية والأسرية التقليدية، وزاد في تفككها<sup>(37)</sup>.

تنتج منطقة حوض دمشق أصنافاً كثيرة من المحاصيل الزراعية، التي تؤلف قائمة طويلة من المحاصيل الحقلية والخضر والثمار والفاكهة والمحاصيل الصناعية والرعيّة والعلفية وغيرها. منها الحبوب وفي مقدمتها القمح، الذي كان المحصول الرئيسي لتأمين المادة الغذائية اليومية الأولى للسكان. لكن زراعته تقلصت نتيجة مزاحمة المحاصيل النقدية كالخضر وغيرها له، وتأمين حاجة المنطقة منه من خارجها. ومن المحاصيل الحقلية الأخرى الشعير الرعوي والمحاصيل العلفية مثل الفصة والذرة والبيقية والبرسيم. ويرجع الاهتمام بها إلى انتشار تربية الأبقار الحلوبة الشامية والأجنبية من جهة. وللمنطقة شهرة متراجعة بإنتاج القنب في الغوطة والقطن في المرج.

وتبقى الخضر والثمار المحاصيل الرئيسية التي تشكل عماد نشاط الفلاح الغوطي بل والمرجي أيضاً، كما تؤمن له دخلاً نقدياً جيداً. وهي التي تزود سكان دمشق وبقية السكان بالمواد الغذائية الضرورية. وللمنطقة وبخاصة غوطتها شهرة واسعة بثمارها وخضرها وأنواعها، وفي مقدمتها المشمش والعنب والجوز، ومن الخضر البازلاء، والفاصولياء، إذ تحتل المنطقة المرتبة الأولى في سورية في إنتاجها. كما تشتهر منطقة الكسوة والأعوج بالعديد من المحاصيل يأتي الثوم في طليعتها. وهكذا تجاوزت زراعة الخضر إطار البقاع المروية بمياه الأنهار والقنوات المتفرعة عنها، أو بمياه الينابيع والفجارات، تجاوزتها إلى الأراضي ذات المياه الجوفية المرفوعة بالمضخات. ومع ذلك تبقى الغوطة بستان حوض دمشق، والمرج والهوامش حقول الزراعة الواسعة فيه.

قال ابن إياس في عجائب الأمصار ١٥٣٣ م عن الغوطة (إنها بساتين كلها). لكن هذا البستان الكبير مهدد اليوم بالزحف العمراني المتحرك من مدينة دمشق، ومن مراكز المدن الأخرى والبلدان والقري المنتشرة في الغوطة، باتجاه البساتين والحقول وبوتيرة وسرعة عاليتين. كما أنه مهدد بالتلوث الذي وصل حداً خطيراً دفع بمعظم المزارعين إلى نبذ ري خضرهم وثمارهم بمياه القنوات الملوثة الخارجة من دمشق وشبكة الري المتفرعة عنها، واللجوء إلى المياه الجوفية ورفعها بالمضخات. وحتى هذه لا تخلو من بعض التلوث الآخذ بالازدياد، نتيجة تسرب المياه الملوثة إلى الخزانات المائية الجوفية.

هذا ومن جهة أخرى فإن خطر تملح المياه الجوفية، وبالتالي تربة الأراضي الزراعية، يهدد الأجزاء الهامشية وخاصة في المرج الشرقي بالتحجر. وهذا يعني أن الغوطة مهددة بالزوال لتراجع حدودها من جميع الأطراف، وذلك على الرغم مما ذكرناه من أن حدودها مع المرج تحركت شرقاً وجنوباً شرقياً دليلاً اتساعها. فإن لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بإيقاف بلاء التلوث، ولوثة قطع الأشجار، وغرس أعمدة الإسمت المسلح مكانها، ووضع حد لاستنزاف المياه وغير ذلك من إجراءات

(37) جغرافية سورية الإقليمية: عادل عبد السلام، اللانقية، ص 326-329.



نواة دمشق القديمة داخل السور مع الأبواب (النت)

ضرورية، فإن دمشق ستتقلب مدينة ضخمة جداً (عملاقة) في بقعة صحراوية تعتمد في بقائها واستمرارها على استيراد كل ما تحتاج إليه من أقاليم سورية الأخرى.

## ٢\_ تربية الحيوانات:

تمر تربية الحيوانات في المنطقة، ومنذ عدة عقود من الزمن أو أزيد، بعملية تحول من تربية الحيوانات الصغيرة (الغنم والماعز) خاصة في كورة المرح ومراعيها، إلى الاهتمام بالأبقار الحلوبة. إذ يزيد متوسط عدد الأبقار

فيها على ١٤٥,٠٠٠ رأس، منها نحو ٦٤,٠٠٠ بقرة أجنبية (هولندية أو دنمركية)، وقرابة ٨٠,٠٠٠ بقرة بلدية وشامية، تُربى في المزارع المنتجة للمحاصيل الرعوية، في حظائر نظامية في معظم الحالات. أما الأغنام وكذلك الماعز فلا زالت قطاعانها تُربى في المنطقة، ويعمل في تربيتها سكان المنطقة الهامشية والبدو شبه المستقرين، وبأعداد قليلة في القرى. أما الخيول والبغال وحيوانات العمل والركوب فقد تراجعت أعدادها؛ لانتشار وسائل النقل الآلية والجرارات وغيرها. وبالمقابل انتشرت تربية الدواجن والأساليب الحديثة انتشاراً واسعاً في المنطقة، وأصبحت المداجن الحديثة تُنتج نحو ستة ملايين طائر. كما أخذ الاهتمام بتربية النحل بالتزايد، فأصبح عدد خلاياه أكثر من ١٨,٠٠٠ خلية، وتنتج المنطقة قرابة ٥٠ طن من الأسماك التي تُربى في مزارع نهر الأعوج في مسامك عين الطيبية.

## ٣\_ الصناعة في حوض دمشق:

يحتل حوض دمشق وقلبه مدينة دمشق، مهد السيف الدمشقي، هي وحلب المقام الأول، في مجال القطاع الصناعي في سورية. ودمشق هي القطب الصناعي الأول والعريق والقديم في بلاد الشام. وتستأثر مدينة دمشق وضواحيها بأكثر عدد من المعامل، والمصانع، والشركات الكبرى، والحيارات والمشاغل (الورشات) الصناعية الحديثة، إضافة إلى تركيز معظم الصناعات الحرفية واليدوية التقليدية فيها. في حين تنتشر خارج المدينة الصناعات الغذائية كعصر الزيتون وصنع رقائق عصير المشمش (قمر الدين) وتجفيف الثمار وصنع الألبان، وكذلك صناعة الحبال وخيوط القنب وغيرها. وقد أُقيمت في مدن المنطقة وبلدانه وقراه الكبيرة منشآت صناعية صغيرة تُقدم خدماتها على شكل ورشات نجارة وحدادة وتصليح آليات ووسائل نقل ومخابز وصنع مواد بناءية (بلوك وبلاط ورخام.....) وموبيليا وجليد وعلف حيواني وغيرها من صناعات صغيرة. كما تكثر المعامل الصغيرة الحديثة والمتنوعة في منطقة القابون.

أما الصناعات الآلية الكبيرة الحديثة ذات الإنتاج الكبير فتتركز حول مدينة دمشق، وعلى امتداد محاور القابون، والشمال الشرقي، وطريق الغوطة الشرقية، والمحور الجنوبي على طريق درعا، وتضم مجموعات شركات الصناعات النسيجية والغذائية والهندسية والكيميائية.

وفي الحوض أكثر من ٩٠٠٠ منشأة صناعية صغيرة حتى متوسطة تابعة للقطاع الخاص، أكثر من ٩٥% منها موجود ضمن حدود مدينة دمشق، وتنتج شتى أنواع السلع والمنتجات الاستهلاكية للسوق المحلية الكبيرة في مدينة دمشق والحوض، وللتصدير إلى بقية أقاليم سورية وإلى الخارج أيضاً. ويعمل في هذه المنشآت عدد من العمال يراوح بين ٥ - ٢٥ أو أكثر. وتشمل جميع أنواع الصناعات الاستهلاكية تقريباً.

أما معامل القطاع العام فيعمل فيها عدد من العمال يُقدَّر بعشرات الآلاف، يعملون في معامل أكثر من ٤٠ شركة ومؤسسة صناعية غذائية، تضم معامل البسكويت والشوكولاته والمنتجات الغذائية والزيوت والصابون والكونسروة والصناعات الزراعية والألبان ومنتجاتها والكونسروة والكاكوز والمياه الغازية ويردى لصناعة البيرة وأغذية الأطفال، ثم الصناعات النسيجية وتضم معامل الشركة العربية المتحدة والمغازل والمناسج والصناعات الحديثة ودمشق للأقمشة الحريرية والشرق للألبسة الداخلية والصناعية لخيوط النايلون والجوارب والعامه للسجاد. ثم معامل الصناعات الهندسية الكيميائية كمعامل عدرا لصناعة الإسمنت ومواد البناء وعدرا الثانية والعربية للدهانات والصناعات الكيماوية للمنظفات والدهانات والصناعات الكيميائية والأهلية للمنتجات المطاطية وغيرها من معامل ومصانع<sup>(٣٨)</sup>.

ولقد تركزت غالبية هذه المعامل على المحاور المذكورة، وكانت السبب في ارتفاع أعداد المهاجرين من الريف إلى التجمعات القريبة منها (سبينة والطبالة ودويلعة وجرمانا مثلاً)، وما رافق ذلك من توسع مساحات أحياء البؤس. كذلك فإن دور هذه الصناعات في تخريب البيئة وتلويثها، بما تقذفه من مخلفات ملوثة غير معالجة في مجاري مياه الأنهار والقنوات، كبير ويحتاج إلى دراسة ومعالجة سريعتين.

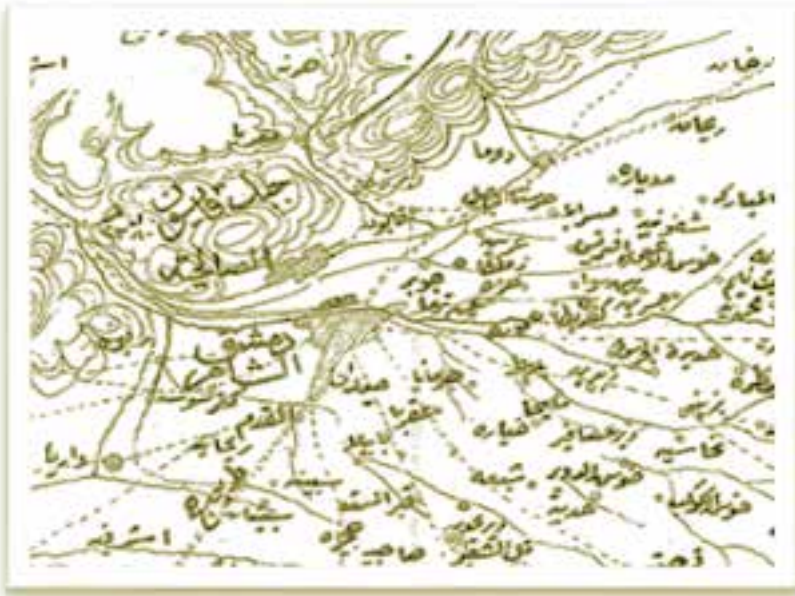
#### ٤- التجارة في حوض دمشق:

تجارة الحوض نشطة نشاطاً كبيراً. على الصعيد الداخلي. وتعد المنطقة أكبر مستهلك للسلع والمنتجات الغذائية والصناعية المنتجة محلياً والمستوردة. وتنشط حركة انتقال المنتجات الغذائية يومياً بين مدينة دمشق وظهيرها في الحوض والأقاليم المجاورة. كما تقوم الأسواق الكثيرة في دمشق وفي المدن الأخرى والقرى بدور هام لدرجة جعل من التجارة مصدر رزق لنسبة كبيرة من السكان.

وقد ساعد انتشار طرق المواصلات في الحوض انتشاراً واسعاً على ازدهار حركة التجارة. بحيث لا توجد قرية إلا وتصلها طريق معبدة مفروشة بالإسفلت إلا ما ندر. وترسم شبكة الطرق مخططاً شعاعياً، مركزه مدينة دمشق، وينتشر على شكل نصف دائرة بحيث تخرج الطرق من دمشق نحو الشمال الشرقي ونحو الجنوب الغربي وما بين الاتجاهين على امتداد الغوطة وهوامشها. وعلى شتى المحاور التي ترتبط بطريق سريعة مزدوجة تُسهل مرور وسائط النقل العابرة إلى دول الجوار.

وفي الحوض خطوط للسكة الحديدية قديمة تربط محطة الحجاز والقدم بالأردن، والزبداني

(38) جغرافية سورية الإقليمية: عادل عبد السلام، اللاذقية، ص 330-331.



مجزأ من خريطة عثمانية لعام ١٨٩٠ للغة دمشق (من النت)

فلبنان. وهي سكة ضيقة تدعمها شبكة سكة حديدية حديثة من النموذج العريض. ربطت الحوض بخط دمشق - حمص مع حلب والفرات والجزيرة منذ تشرين الأول عام ١٩٨٣. وهناك وصلة قصيرة في الحوض تربط دمشق بمدينة قطنا في إقليم الجبال العالية.

ويتوسط الحوض مطار دمشق الدولي قرب قرية جديدة الخاص في المرج، وهو الميناء الجوي الأول في سورية، وصلة الوصل بينها وبين العالم، تحط فيه طائرات

عدد كبير من شركات الطيران العربية والأجنبية، إلى جانب شركة الخطوط الجوية السورية. وفي المطار قسم خاص بالرحلات والطيران الداخلي بين الحوض ومطارات المدن السورية الأخرى. وقد ازدادت أهمية مطار دمشق منذ عام ١٩٧٥، وعدم استقرار الأوضاع الأمنية في لبنان ومطاره الدولي في خلدته جنوب بيروت. وفي المنطقة مطار صغير آخر في المزة كان مطار دمشق المدني قبل إنشاء المطار الجديد في المرج<sup>(٣٩)</sup>.

أما عن خدمات المنطقة فإنها على الرغم من انتشارها الواسع، وتغطيتها الحوض في مجال التعليم والتربية، وتوفير المياه النقية للشرب والكهرباء (منذ جرها إلى دمشق سنة ١٩٠٧)، ثم لجميع القرى تقريباً اليوم، وتأمين الخدمات الصحية، وربط التجمعات السكانية بطرق مواصلات جيدة، فإنها أي الخدمات، تُصاب باختناقات وتعرض لأزمات فعلية نتيجة اختلال معادلة عدد السكان المستفيدين من الخدمات، وعجز هذه الخدمات عن تلبية الحاجات المتزايدة لهم. ومع ذلك، فإن الحوض وقراه هما من أكثر أنحاء سورية تطوراً ونمواً في شتى مجالات الاقتصاد والخدمات.

### **الخاتمة:**

وأخيراً وليس آخراً فقد عانت دمشق وحوضها خلال تاريخها الطويل من أحداث وكوارث طبيعة (زلازل)<sup>(٤٠)</sup>، وبشرية (حروب وغزوات) مدمرة، عصفت بكيانها ووجودها أكثر من مرة... آخرها الحرب التي اجتاحت المنطقة منذ سنة ٢٠١١ وما زالت آثارها باقية للعيان، تنتظر إعادة إعمار ما خلفته من دمار، جرياً على عاداتها في استعادة الحياة إثر كل نكبة.

### **مصادر البحث ومراجعته**

(٣٩) جغرافية سورية الإقليمية: عادل عبد السلام، اللاذقية، ص 332-333.

(٤٠) جغرافية سورية: عادل عبد السلام. الجزء الأول، دمشق، ص 81.



- أشكال تضاريس (جيومورفولوجية) سورية: ك. م. ميرزايف، ترجمة: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٧٠.
- أطلس الرياح في الجمهورية العربية السورية: وزارة الدفاع، (المديرية العامة للأرصاد الجوية)، رئاسة مجلس الوزراء (مكتب الطاقات المتجددة)، الشركة العامة السورية لأعمال الكهرباء والاتصالات، دمشق، ١٩٩٨.
- أكساد (المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة).
- الأطلس المناخي لسورية: وزارة الدفاع (المديرية العامة للأرصاد الجوية - مديرية المناخ)، دمشق، ١٩٧٧.
- الأقاليم الجغرافية السورية: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٩٠، اللاذقية، ٢٠٠٣.
- تاريخ دمشق: ابن عساكر، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٦.
- تاريخ سورية المعاصر: كمال ديب، دار النهار، بيروت، ط١، ٢٠١٩.
- تلوث المياه الجوفية في سهل دمشق، دراسة حالة حول حقول آبار مياه الشرب في مدينة دمشق: عمار العمارين، دراسات العلوم الأساسية، المجلد ٢٨، دمشق، ٢٠٠١.
- الثروة المائية الجوفية في سورية: شفيق الصفيدي، رسالة العلوم، العدد ٤، دمشق، ١٩٥٧.
- جغرافية سورية: عادل عبد السلام، الجزء الأول في الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، دمشق، ١٩٧٣.
- جمعية أصدقاء دمشق: الخصائص الطبيعية لواحة دمشق، تأليف مجموعة من الباحثين والمختصين، دمشق، ٢٠٠٨.
- خطط الشام: محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ٢٠٠١.
- دمشق الشام: مجموعة من المؤلفين، دار الكرنك، دمشق، ط١، ١٩٩٩.
- دمشق في عصر المماليك: نقولا زيادة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦.
- سورية في العصور الكلاسيكية: مورييس سارتر، ترجمة: محمد الدنيا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٨.
- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني: قسطنطين بازيللي، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.
- شفيق الصفيدي: المياه الأرضية في الجمهورية العربية السورية، مصادر المياه الأرضية في البلاد العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سلسلة الدراسات العلمية الموسعة، رقم ٢ - ١٩٧٣.
- غوطة دمشق محمد كرد علي، دمشق، ٢٠١٩.
- المديرية العامة للأرصاد الجوية: دمشق.
- المرج في حوضه دمشق وقرية مرج السلطان الشركسية: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٥٤/١٩٥٥.
- المكتب المركزي للإحصاء: دمشق، المجموعة الإحصائية من ٢٠٠٣ - ٢٠٢٠.
- الندوة العلمية حول تلوث بردى وغوطة دمشق: نقابة المهندسين، فرع محافظة دمشق، دمشق، ١٩٨٦.



- واقع إدارة الموارد المائية في سوريا والتنبؤات المستقبلية حتى عام ٢٠٢٥: جورج صومي، ملكي وداود معن دانيال، دمشق، سلسلة أوراق سورية، دمشق، هيئة تخطيط الدولة وUNDP العدد، ١٢، ٢٠٠٧.

### \_ المصادر والمراجع الأجنبية:

- Damaskus; Dettman, K. Erlangen 1969.
- Das Problem der eiszeitlichen Vergletscherung am Libanon und Hermon; Meserli, B, Zeit. F. Geomorph. N.F. 10, Berlin 1966.
- Die Quartärbildungen in Damaskus-Becken und seinen Rahmenbereichen; Kaiser, K., Zeit. F. Geomorphologie, N.F. Band 17. Heft 3. Berlin 1973.
- Morphologische Studien in der Syrischen Wüste und dem Antilibanon; Abdulsalam, A. , Berlin 1966.
- Niederschlagsvariabilität und Anbau - Unsicherheit in Syrien; Zimpel, H.G, Mitt.der Geogr. Gesll in München. Band 54, 1969.
- Observations on the Quaternary of Syria; Liere, W. J. van, Genl. Dir. of Antiqu. And Museums in S. A. R. Damascus 1961.
- Patterns of environmental changes in the Near East during Late Pleistocene and Early Holocene Times; Butzer, K. W., In (Problems in prehistory: North Africa and the Levant). Dallas 197
- Syrien und Libanon; Wolfart, R., Beiträge zur regionalen Geologie der Erde. Berlin 1967
- Tectonic and Geologic Evolution of Syria; Brew G. & others, Middle East Petroleum Geosciences 6, no. 4 Bahrain 2001.